

عصمة الرسول . تعدد الزوجات . زوجات الرسول . خديجة أم المؤمنين

الطلاق . تحديد النسل . التبرج والسفور . التعطيل . أين الله ؟

الإسراء والمعراج

أخطاء المفسرين ، وسقطات المحدثين . الله معنا : فهل نحن مع الله ؟

حقائق ثابتة في الإسلام

يحاول المنحرفون طمسها . والتخلص منها

لابن الخطيب

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

الطبعة الأولى

١٣٩٤ – ١٩٧٤

مطبعة الأفق – طهران

أحمد حسن ملاديني

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن لا يحمد غيره ، ولا يعبد سواه : والصلاة والسلام على من آتاه الله تعالى من الخير أَجَلَّهُ ، ومن الفضل أكمله ! وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه المتقين ؛ وعلى من تبعهم إلى يوم الدين !

أما بعد : فقد تتلمذت ردحاً من الزمن ـ ما أحلاه ـ على إمام الكلام ، وفخر الإسلام ، وسيد من امتشق القلم : الإمام ، العالم ، العامل ، العارف بالله : سيدى وسندى الأستاذ الكبير محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب : الذى ذاع علمه وفضله ؛ وملأ بقاع الأرض تقى ، ومعرفة ، وبركة !

وهو ـ حفظه الله ـ رغم علمه الغزير ، وفضله الكثير : يترفع أن يذكره إنسان بفضل ، أو يثنى على علمه بما هو له أهل : تواضعاً منه ، وزهداً فى مباهج هذه الحياة الدنيا !

فكم رأيته يتدلى من عليائه : فيستمع إلى من هم دونه علماً ؛ بل دون تلاميذه قائلا : عسى أن أهتدى على يد أحدهم بما لم أهتد إليه .

وبمثل هذا التواضع الجم ، وهذا الخلق النادر : سار أستاذنا الجليل فى حياته العلمية : مدافعاً عن الدين ، محافظاً على حبل الله المتين !

وبينما نراه دائماً كالماء الزلال : هدوءاً وصفاء : إذا به ينقلب فجأة كالأسد المصور : إذا ما اعتدى على حرمات الله تعالى ، أو أخل أحد ـ ممن يعرف أو لا يعرف ـ بسنة رسول الله !

فهو دائماً يرضى فى الله ؛ ويغضب فى الله !

وكم مرة رأيته ، والدمع ملء عينيه حينما يذكر الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

وكم رأيته ونشيجه يقطع نياط القلوب : إذا مرّ في قراءاته بذكر واقعة أوذى فيها الرسول حال حياته ، أو أصيب بسوء نزل به !

ولم أره إلا تالياً لكتاب الله ، دائم المدارسة فيه !

وكتابه « أوضح التفاسير » وقد صدر منه سبع طبعات حتى الآن : لم يؤلفه إلا بعد أن استوعب أمهات كتب التفسير : مطبوعها ومخطوطها .

وهو — رغم ما ظهر من مؤلفاته — له مؤلفات ضخام : لم تسعد بمشارق أنوارها بعد .

فقد أراني تفسيراً للقرآن الكريم : صاغه ببيانه ، وكتبه بقلمه : يبلغ حوالى عشرين جزءا . وقد يزيد عن تفسير القرطبي ، ويقارب تفسير الطبرى .

ومن عادته — حفظه الله تعالى وأطال بقاءه — ألا يقلد أحداً فيما يكتب ، أو ينقل عما كتبه الأوائل ؛ بل يقرأ ، ويقرأ ؛ وبعد ذلك يكتب بطريقة : هى بالإلهام الذى ينزل على القلب أشبه منها بالعلم الذى ينطق به اللسان !

وقد صارحنى مراراً أنه إنما يكتب ما يكتب بدافع إلهى . يبتغى به مرضاة الله سبحانه ، وكيد الشيطان اللعين !

وقد يقضى الليالى الطوال : ساهراً مؤرقاً : لأن واحداً من الناس طعن فى الدين ، أو عاب فى القرآن ، أو افترى على الرسول عليه الصلاة والسلام !

هذا وقد رأيته — عند قدومى إلى مصر — يكتب هذه المباحث ، ويهذب فيها ثائراً على بعض الكتاب : الذين يراءون فيما يكتبون ، ويظهرون غير ما يبطنون ! ويريدون الشهرة بما يبثونه من سموم بين سواد الأمة .

وهو كثيراً ما يكتب بقصد النفع ؛ لا بقصد الطبع ! وقد أعجبت بما كتبه من دامغ الحجة وبليغ الاستدلال ، وواضح البرهان . فى هذه المباحث التى تعتبر متممة لكتابه « أوضح التفاسير » والتى سماها — محقاً — « حقائق ثابتة فى الإسلام » .

فاستأذنته فى طبعها : لينتفع بها : فأذن بذلك مشكوراً .

ونحن إذ نطبعها الآن : فى هذا العصر الملىء بالكفر والإلحاد : فإنما نريد بذلك قطع الألسن المفترية الباغية ، والوقوف بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه بالخروج عن جادة الحق ، أو التعرض لهذا الدين القيم بالفساد والإفساد !

هذا وليس معنى طبعنا لهذه المباحث : أننا ندين بكل ما جاء فيها .

فقد علمنا أستاذنا الجليل : عدم التسليم لما لا ترتاح إليه ضمائرنا ، وأن ننقد ما نراه قابلا للنقد .

لذا فإني ــ نزولا على ما علمنى ــ أقول بحق : إن جميع ما كتبه : يبلغ غاية الإبداع ؛ فقد غاص فى طلب لآلىء القرآن والإيمان : حتى استخرجها من أصدافها : بيضاء ناصعة ، شديدة النور واللمعان ، فأبان حسنها ، وجلا بريقها !

غير أنى لا أوافق سيادته فى بعض ما كتبه فى المعراج ؛ رغم أن ما كتبه رائع ونفيس !

إذ أنه لا حرج مطلقاً أن يربط المختار أو جبريل عليهما الصلاة والسلام البراق فى حلقة المسجد ، أو فى الصخرة .

أو أن يطرق جبريل أبواب السموات ؛ مع علم أهلها به .

أو أن تفرض الصلوات خمسون ، وتنزل إلى خمس فى العد ، وخمسين فى الأجر .

أما مراجعة رب العالمين بهذه الكثرة ، وهذا الإلحاح ، وما نسب إلى موسى من الحقد على محمد : فقد أجاد الأستاذ فيه وأفاد : وبلغ فى مناقشته ؛ ما لا يستطيع الزمخشرى منافسته فيه !

وقد بلغ تعجبى مما أثاره أستاذنا الجليل من الأحاديث التى أوردها : أن بدا له عدم تصديق لوجودها فى الكتب المعتمدة ؛ فأرانى مواضعها فى أصح كتب الحديث ، وأوثق كتب التفاسير .

والله المسئول أن ينفع بما عمل وعملناه ، وبما علم وعلمناه ! ؟

٤ شباط ١٩٧٤ — دكتور الياس محمد العتبى

لماذا أسميت هذا الكتاب :

حقائق ثابتة فى الاسلام

يحاول المنحرفون طمسها . والتخلص منها

عصمة الرسول عليه الصلاة والسلام :

هل يوجد مسلم يتوهم أن الرسول الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه : غير معصوم ـــ قبل النبوة وبعدها ؟

إذا افترضنا وجود هذا الإنسان ؛ أليس من حقنا أن نقول : إنه منحرف !

فإذا لم توافقنى على انحرافه : فاقرأ ما كتبته لك !

تعدد الزوجات :

لا يوجد مسلم يسمع قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

ويرى سنة الرسول الكريم ، وسنة صحابته ، وتابعيهم من بعدهم ، وتابعى تابعيهم إلى يومنا هذا : وينسب إلى القرآن الكريم التناقض بقوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ويعتبر أن هذا إلغاء صريح للتعدد . ويغفل أنه تنظيم للتعدد ؛ لا إلغاء له .

ألا يجوز لى أن أقول بحق : إنه منحرف ، وإنه يريد أن يهدم « حقيقة ثابتة فى الإســـلام » ؟

أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام :

لم يتزوج الرسول واحدة منهن : ابتغاء جاه ، أو شهوة : فكلهن ثيبات مكتهلات ـــ عدا عائشة ـــ فإذا قال قائل : إنه شهوانى ؛ مستدلا بكثرة زوجاته : حق لنا أن نقول : إنه منحرف ؛ بل كافر ! وألقمناه حجراً بما سقناه من أدلة ، وماأوردناه من براهين !

أم المؤمنين خديجة :

رضى الله تعالى عن أم المؤمنين خديجة ؛ فقد ضربت الأمثال تلو الأمثال : للزوجات الصالحات الطيبات ! بما جعل الرسول الكريم لا يتزوج عليها إلا بعد موتها ، وافتقاره إلى ذلك الحنان الضخم ، والحب الذى لا يعدله حب ! وقد صار ذلك شريعة لمنع التعدد : إذا توفر مثلها لزوج ؛ وأين مثلها ، أو من يضاهيها بين الأزواج ؟

فهل يجسر إنسان مسلم أن يخالفنى فيما قلت ؟!

الطلاق :

وهو حق مطلق من أى قيد — ولو أنه أبغض الحلال عند الله — ولكنه سمى حلالا ، وعقدته بيد الزوج وحده « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » .

فإذا ما قال قائل : يجب أن يكون بيد القاضى : وجب علينا أن نسميه منحرفا ؛ يريد طمس شريعة المولى سبحانه ومحوها !

تحديد النسل :

حسبوه أنه تخلصاً من الفقر ؛ فكانت الدعوة إليه : هى الفقر بعينه !

لقد خلق الله تعالى الأرض ، وجعلها صالحة لإطعام من يخلقه عليها ؛ فلما عجز الناس عن إصلاحها وإفلاحها : لجأوا إلى الدعوة إلى التحديد ؛ فأضافوا بذلك عجزاً إلى عجزهم ، وتقصيراً إلى تقصيرهم !

والدعوة إليه منكرة ، يرفضها كل من ملأ الله تعالى قلبه بالإيمان ، ووثق بوعد المولى سبحانه ؛ برزق من خلق وبرأ .

ولا شك أن الدعوة إليه : انحراف عن الجادة ، وطمس لآيات الرحمن ، فى الأكوان !

التبرج والسفور :

من ذا الذى يرضى بما نراه الآن ، ويطمئن على أهله وبناته ؛ وقد صرن نهباً لأنظار الأشرار والفجار !

أليس من يخالفنى فى هذا : خارجاً على تعاليم الدين والقرآن ، باعثاً ما يبثه الشيطان فى قلوب بنى الإنسان ؟!

التعطيل :

من ذا الذى يقول بعدم وجود إله ؟ بعد أن أثبت وجوده بنفسه ، وأقام الأدلة والبراهين ، على رحمته وبأسه ؛ ورأينا بطشه فى عفوه ، وعفوه فى بطشه !

وإن الذى يقول بغير الذى قلناه : كافر بنص كلام الله ؛ غير جدير بأن ينتسب إلى بنى الإنسان ؛ وليس من بينهم من ينكر الديان : حتى الكفرة الفجرة : آمنوا بوجوده وسيادته ؛ ولو أنهم انحرفوا عن طاعته وعبادته !

أين الله ؟

هاهو الله : سبحانه تقدس اسمه ، وتعالى عن الأفكار رسمه !

فإن شئت : رأيته فى أخذه ، وان شئت علته فى عفوه ! ومن يقل ــ بعد ذلك ــ أين الله ؟ فهو منحرف أتم انحراف : كافر أفحش الكفر !

الإسراء والمعراج :

مرحباً بالرسول الكريم ، والنبى العظيم : فى بيت المقدس : إماماً لسائر الأئمة !

ومرحباً به فى السموات العلى ؛ ليرى من آيات ربه الكبرى !

كل ذلك نسلم به ، ونؤمن بحقيقته ؛ كأنما نراه صلى الله تعالى عليه وسلم فى مروره بالمسجد الأقصى ، وفى عروجه إلى الملإ الأعلى !

نؤمن بذلك بقلوبنا قبل عقولنا ! ولكننا ننكر كل ما ينكره العقل والدين ، ونحكم ببطلان الإفك والزور ، الذى بذره أعداء الدين فى الدين ، وسقاه ورعاه السذج والبسطاء من المسلمين ، وبث فيه ما ليس فيه الأفاكون والمبشرون !

فهل لمسلم : يحترم عقله ، ويجل ربه ، أن يقول لى أخطأت !

فإذا قالها مؤيداً من عقله : فهو مجتهد مخطىء ! وإذا قالها معانداً مكابراً : كان منحرفاً ضمن المنحرفين !

أخطاء المفسرين وسقطات المحدثين :

والله : كم عانينا من أخطائهم وسقطاتهم ، ووقفنا مشدوهين مما نقرأ ونسمع !

وقد حال بين نقدهم وتفنيد آرائهم : عظم اشتهارهم ، وضخامة سمعتهم وأسمائهم !

ولا يخلو حالهم من احدى اثنتين : سذاجة مطلقة ، وحسن نية ؛ فيما أخذوه ونقلوه من الغير .

أو أن ما وجد فى مؤلفاتهم : قد دس عليهم .

وهم فى كلا الحالين معذورون !

ولكن لا عذر لمن يكتشف الباطل ؛ فلا يعلى عليه الحق ! ويتيقن من الكذب ؛ فلا يعلى عليه الصدق ! ويتأكد من الكفر ؛ فلا يعلى عليه الإيمان !

فإذا ما وجد إنسان مسلم يجادل فى هذا الباطل ، ويريد أن يعليه على الحق ؛ أليس من حقنا أن ننادى بانحرافه عن جادة الصواب !

الله معنا ! فهل نحن مع الله ؟

يقول المولى سبحانه « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » فقرر جل شأنه أنه مع من يتق ربه ، ويحسن عمله !

فأين المتق ، وأين المحسن ؟

فإذا طلع علينا إنسان يدعى الإيمان ؛ وقال : إن هذا ليس بصحيح ، وإن مجهود الإنسان الفردى : هو المؤثر فى أعماله وأفعاله ، وإن النصر : من جهد المقاتل ؛ لا من معونة الله سبحانه ؛ القائل « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

ولم يبق فى ذهن هذا القائل سوى قول قارون « إنما أوتيته على علم عندى »

فهذا الإنسان فى نظر كل مؤمن : منحرف عن الإيمان !

لهذا سمينا كتابنا هذا « حقائق ثابتة فى الإسلام » .

وشكر الله لمن أحسن الظن ، وأتقن الفهم !

وغفر لمن أساء الظن ، وأخطأ الفهم ؟

محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب

مباحث

عصمة الرسول . تعدد الزوجات . زوجات الرسول

أم المؤمنين خديجة . الطلاق . تحديد النسل

التبرج والسفور . التعطيل . أين الله ؟

الإسراء والمعراج

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستهدى ونستعين

حمداً لله ، وصلاة وسلاما على مصطفاه ، وعلى آله وصحبه ومن والاه !

أما بعد : فقد رأينا أن نلحق بهذا التفسير أبحاثاً : ضاق المقام عن سردها فى أماكنها ؛ وهى من الأهمية بحيث لا يستغنى عنها قارئ أو باحث .

وقد رأينا أن نبدأها بعصمة الرسول عليه الصلاة والسلام : لما يقع فيه بعض المسلمين من خطإ بالغ ، وإثم شنيع : فى قدر أفضل خلق الله !

وهذه هى الأبحاث كما رتبناها :

١ — عصمة الرسول عليه الصلاة والسلام : قبل البعثة وبعدها .
٢ — تعدد الزوجات ، وما ثار حوله من جدل بين المسلمين أنفسهم ، وبين المسلمين وأعدائهم .
٣ — أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام . وأسباب زواجه من كل واحدة منهن .
٤ — أم المؤمنين « خديجة » رضى الله تعالى عنها ، ومكانتها بين نساء العالمين .
٥ — الطلاق . وهل يجوز أن يسلب حق التطليق من الرجال ؟
٦ — تحديد النسل . ونظرة الإسلام له !
٧ — التبرج والسفور . وآثاره فى انحطاط أخلاق الأمم وفسادها !
٨ — التعطيل والدعوة إلى إنكار الربوبية .
٩ — أين الله ؟ وهو سؤال استنكارى : شاع أخيراً بين شباب المسلمين وغيرهم .
١٠ — الإسراء والمعراج ، وما اكتنفهما من أقوال وأحاديث ، لا يصح أن يؤخذ بها ، أو يعول عليها .

والله أسأل : أن يوفقنا فى كل ما ذهبنا إليه من كفاح : نراه جهاداً فى سبيله ، وسبيلا إلى مرضاته !

محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب

عِصمة الرسُول عَليه الصّلاة والسّلام

قبل البعثة وبعدَها

مُنذ خَلقه الله تعَالى حتى لحُوقه بالرفيق الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين : الذى جاءنا بالكتاب المبين ؛ وأفاض علينا من عظيم أخلاقه وكريم خلاله : ما يجعلنا — لو اتبعناه وسرنا على هداه — فى أعلى عليين !

وأنى لنا أن نتخلق بها : وقد اختصه المولى لها واجتباه ؛ ليكون نموذجا للكمال البشرى ؛ الذى لم تبلغ شأوه ملائكة الرحمن ! ونبراساً يستضىء به كل من استنار قلبه بالإيمان !

ولن يستنير قلب : إلا إذا آمن إيماناً يقينيا بعصمته عليه الصلاة والسلام من شبهة الخطايا والآثام !

وكيف لايكون مبرءاً من الخطإ : وقد أرسله مولاه لينجينا من الخطإ !

اللهم إلا إذا زعم زاعم أن المولى سبحانه ليس فى استطاعته أن يبرئه من الخطإ !

تعالى المولى عن العجز عما أراد ويريد !

خلقه تعالى : ليكون شفيعاً لسائر الناس ؛ وكيف يشفع للناس من هو كسائر الناس ؟ بل كيف يشفع فيهم ؛ وفيهم من يفوقه خلقاً ؟ !

تعالى المولى سبحانه أن يرسل رسولا : دون المرسل إليهم ، أو مماثلا لهم !

وكيف يقع الرسول الكريم فى الإثم : وهو الناهى عنه ، المتوعد عليه ، المبغض لمن يأتيه ! صلى الله تعالى عليه وسلم : صلاة دائمة بدوامه ، قائمة بقيامه ؛ ولقانا به فى الجنة ؛ وهو عنا راض ان شاء الله !

وجنبنا بفضله ومنه : الوقوع فى شرك البدع ، والسقوط فى مهاوى الضلالة والجهالة ! وباعد بفضله بيننا وبين ما يغضبه ، وحال بكرمه بيننا وبين عذابه ! إنه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة !

وسبحانك ربنا : لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم !

وإنه لمن المعلوم — عقلا ونقلا — أن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، قد عصمه مولاه من الوقوع فى مثل ما يقع فيه سائر البشر .

وأنه تعالى قد أعده ليكون نبراساً : تسير أمته على هداه ، وتقتفى آثاره فى كل ما يأخذ وما يدع .

وأنه لا يبدر منه ما هو خلاف الأولى ؛ فضلا عن إتيان ما نهى الله تعالى عنه ، وترك ما أمر به !

وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرعى ربه فى كل أموره : ليس فى العبادة وحدها ؛ بل فيما يتعلق بشئون دنياه أيضا !

وأن الله تعالى قد حماه — فى صباه — من الوقوع فيما يقع فيه أنداده من الصبيان : من عبث ساذج ، ولهو برىء !

حتى السمر : الذى كان يسمره الناس فى عصره : حماه مولاه تعالى منه !

فقد ورد أنه فى ليلة ما : أراد أن يسمر كما يسمر الفتيان ؛ فألقى مولاه عليه النوم ، فلم توقظه من نومه سوى الشمس !

وهذه إرادة المولى سبحانه : ليعلى شأنه ، وليعلم المبعوث إليهم : أن رسوله هذا — ولو أنه كالمرسل إليهم خلقة — غير أنه ليس كأحدهم خلقاً !

لهذا كان محمد عليه الصلاة والسلام بشراً واضح البشرية : يأكل كما يأكل البشر ، ويمشى فى الأسواق كواحد من البشر فى خلقه ؛ فى حين لا يدانيه — فى خلقه — واحد منهم ؛ ولا النبيون ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم !

وحين قال المولى سبحانه « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » أراد بذلك : التأسى به فيما ناله من أذى قومه وعنتهم ؛ ولم يرد أن يكونوا مثله ؛ إذ أن المثلية لا تتحقق إطلاقا ! وأنى لهم ذلك ؟ وقد كتب عليهم الخطأ ، والخطيئة ، والإثم ؛ فى حين أنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه مبرأ من جميعها !

فهو عليه الصلاة والسلام : خيرة الله تعالى من خلقه جميعاً : يوم ذرأهم وبرأهم !

وهو خير خلق الله تعالى قدراً ونسباً على الاطلاق !

فإذا ما قال قائل : كيف ذلك والمولى سبحانه يقول « قل إنما أنا بشر مثلكم » .

نقول له : إنما أراد المولى بهذا القول : إثبات بشريته ، ونفى ملائكيته !

وقد ورد أن أويسا القرنى رضى الله تعالى عنه ؛ وهو من سادات التابعين قال لأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما رأيتم من مولانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا ظله .

قالوا : ولا ابن أبي قحافة ؟ (يعنون أبا بكر) قال : ولا ابن أبي قحافة .

ولما ذكر هذا الكلام عند العارف الأكبر : أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه ، قال : صدق والله أويس رضي الله تعالى عنه .

وإلى هذا أشار البغدادي بقوله ، مخاطباً أويسا :

صدقت : لقد حاز الحبيب مناقباً تقاصر عن إحصائها كل مستقصى !

صحابته : لم تحص ما خصه به إله البرايا ؛ ليت شعرى من يحصى ! ؟

وحينما يقول له مولاه « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » يظهر لنا جلياً أن تلك هي العصمة بأجلى معانيها !

وذلك لأن إراءة الله : هي حقيقة عليه . تعالى الله أن يخطىء !

وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول : أيها الناس اتهموا الرأى ؛ فإن الرأى لم يكن مصيباً إلا من محمد وحده : لأن الله تعالى كان يريه ، وذلك قوله « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » .

وحينما نظر المولى سبحانه إلى ناسوته :[١] قال له « ليس لك من الأمر شيء » .

وحينما نظر إلى لاهوته :[٢] وهو حقيقته التي أوجده عليها .

قال « والله ورسوله أحق أن يرضوه »

وحسبه — صلوات الله تعالى وسلامه عليه — سمواً عن البشرية ؛ أنه الحق الذى عميت عنه أبصار المشركين وبصائرهم « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » فعاقبهم المولى سبحانه على عنادهم : بعدم التمتع برؤية نوره واستجلاء محاسنه !

ولا تنس أيها المنصف الحكيم قول الرحمن المنان « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة »

فهو عليه الصلاة والسلام : منة الله تعالى على عباده ، ونوره السارى بين خليقته ، والواسطة في رحمته ، والشفيع لمن رضي عنهم من عباده !

أذاقهم عز الطاعة ، بعد ذل المعصية . ثم تاب عليهم ، وعفا عنهم ، وشفع الحبيب فيهم !

فهل هذا بشر مثلنا يا أولى الألباب ؟ !

---

١ — الناسوت : طبيعة الانسان البشرية . وقيل : إن الناسوت : البشر . واللاهوت : الله

٢ — اللاهوت : ما في الانسان من صفات إلهية : مستمدة من الإله سبحانه ؛ قال صلى الله تعالى عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله » .

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : « كان خلقه عليه الصلاة والسلام القرآن » .

ردّ أحد العلماء على بعض ما جاء بكتابنا

هذا وقد تفضل الصديق الصدوق : الأستاذ الكبير الشيخ على أبوطالب : أستاذ الدراسات الاسلامية بالأزهر : بالتعقيب على بعض ما جاء « بأوضح التفاسير » متعلقاً بعصمة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ مثبتاً أن الرسول الكريم كان بشراً مثلنا : يخطىء كما نخطىء ، ويصيب كما نصيب ؛ عدا ما يتعلق بالرسالة .

وقد رأينا أن نعقب على هذا بما يرتاح إليه ضمير المؤمن الصادق الإيمان !

قال الأستاذ : عافاه الله من الإثم ، وحماه من كيد اللعين !

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين : سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

فإن أصدق الحديث : كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار !

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا ؛ وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا ؛[1] فاجعل لنا الحزن سهلا .

اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم ، وأكرمنا بنور الفهم ، وجنبنا الخطأ والزلل فيما نقول ونعمل ، وافتح علينا بحكمتك ، وانشر علينا خزائن رحمتك ، يا أرحم الراحمين !

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم !

أخى صاحب السيادة الأستاذ الجليل محمد عبد اللطيف ابن الخطيب

يقول الله عز وجل فى غير آية « قل إنما أنا بشر مثلكم » كما قال « هل هذا إلا بشر مثلكم » ومقتضى المثلية أن يكون نبينا صلى الله عليه وسلم كسائر البشر ؛ فيما عدا ما يوحيه الله إليه : فيصيب كما نصيب ، ويخطىء كما نخطىء ؛ وإليك الدليل :

قال الله عز وجل فى سورة الأنفال « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . . . الخ » .

عند ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر » فكان الرسول عليه الصلاة والسلام فى الجانب المقابل لعمر .

---

١ — الحزن : بفتح الحاء ، وسكون الزاى : الأرض الغليظة ، غير المستوية . والسهل : ضد الحزن .

ولقد هم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلى على أحد الكافرين ؛ فجذبه عمر من ثوبه ، وقال له : إنه كافر ولا ينبغى لمثلك أن يصلى عليه . فأنزل الله سبحانه وتعالى . موافقا عمر حيث يقول « ولا تصل- على أحد منهم مات أبدا . ولا تقم على قبره ... الخ » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يضيق صدره من الإيذاء كما يضيق صدرنا ، قال الله عز وجل « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » .

وكان يحزن بما ينسب إليه ، كما جاء فى الآية « ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » وقال عز وجل « ولا يحزنك قولهم » كما قال عز ذكره « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

وقد عرض سيدنا عمر عليه صلى الله عليه وسلم أن يحجب نساءه بقوله له إن نسائك يدخل عليهن البر والفاجر ؛ فمر نساءك أن يحتجبن . فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل حتى نزل قوله عز وجل « وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب » .

إلى غير ذلك من موافقات عمر للقرآن الكريم .

وجاء أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب من أهل المدينة ألا يؤبروا النخل . فتركوا تأبيره ، فلم يثمر النخل ، فقال لهم « افعلوا ما كنتم تعملون » أو كما قال .

وجاء فى حديث القسم أنه صلى الله عليه وسلم قال « هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك » . فمن ذلك نعلم أن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء . وعليه أن نقول بميل قلب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى زينب بنت جحش زوجة مولاه زيد بن حارثة ليرتب الله على ذلك ما رتب ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب ، ويحب النساء أيضا ويعجبه حسنهن ؛ بدليل قول الله سبحانه وتعالى « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن . . . الخ » .

ويمكن أن نحمل حب الرسول للنساء : رفعا لشأنهن ، وإعزازاً لهن . فلقد كان العرب يئدون بناتهم صغاراً ، ويجعلون نسائهم متاعا يتصرفون فيهم كما يتصرف الإنسان فى سلعه وأمتعته ، وقد قال الله عز وجل « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم . . . الخ » .

كما قال فى الآية بعد « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالص لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وان يكن ميتة فهم فيه شركاء » .

وقد كان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يجتمع بالنساء فيبايعهن ويعظهن كما جاء فى القرآن الكريم « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا . . . الخ »

وكان يجعل لهن يوما يعظهن فيه ويأمرهن بالصدقة ؛ فكن يلقين بالقرط والخاتم وبلال يأخذ فى حجره .

يا أيها الأخ الكريم رجائى منك أن تتأمل هذه الأدلة ، وأن تخلى نفسك من كل تعصب ، وأن لا تجعل حرجا على فضل الله ، وتقييداً لما يريد . فلله أن يمنح بما شاء ، فكم منح من عباده مالا يحصيه عد ، ولقد منح عز وجل سليمان بن داود قوة بمقتضاها كان يطوف على نسائه فى ليلة واحدة وكن سبعين أو أكثر ، كما جاء فى الحديث أن سليمان عليه السلام قال لأطوفن الليلة على نسائى فتأتى كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله ، فما حملت واحدة منهن غير واحدة أتت بشق ولد ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لو قال سليمان : إن شاء الله لأتت كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله » .

وعليه أن لا تستكثر على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمنح قوة أربعين رجلا مع فضله على سائر الأنبياء والمرسلين .

وفقكم الله لما فيه الخير ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين !

تعقيبنا على هذا الرد

هذا وقد رأينا أن نعقب على ما كتبه أستاذنا الفاضل ، حيث إن ما كتبه فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح :

أستاذنا الجليل النبيل : الشيخ على أبو طالب : حفظه الله تعالى هاديا مهديا ، وأفاض عليه من العلم والفهم ؛ ما يجعله أهلا لما يحمله من وراثة الأنبياء !

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد : فقد أتانى كتابك الكريم ؛ الذى يصلح أن يكون رسالة مستقلة يدرسها الدارسون فى بشرية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : بشرية مطلقة !

ولم يقل ذلك — على ما أذكر — سوى بعض المستشرقين ؛ وتابعهم فى ذلك بعض من لا أريد أن أضعك فى زمرتهم ؛ فأنت منى الأخ الصادق ، والمحب المخلص الأمين !

ولولا حبى لك ، وحرصى عليك : لما عقبت على كتابك هذا ، ولاعتبرته ضمن ما قرأت وأقرأ مما أعده من سقط القول !

أما وقد عززت كتابك بالآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية : فقدْ صار لزاما على أن أكتب ما عن لى عند قراءته .

وفوق كل ذلك فإن كتابك يستلزم منى ابتداء شكرك على تفضلك بالتعقيب على بعض ما ذكرته فى كتابى « أوضح التفاسير » .

وأقسم غير حانث أنى ما كتبت فى حياتى شيئا إلا بعد اقتناعى به ، ورغبتى فى مرضات الله من أجله !

فإذا ما رأيتنى فى ردّى هـذا : متبرما بما قلت ، أو محتدآ : فذلك طبعى الذى جبلت عليه . وأعتذر مقدما عما يبدر منى من ألفاظ قد لا تستسيغها : دفعنى إليها شدة مخافتى وخشيتى من تسرب هذه الآراء إلى العامة ؛ فتصبح عقيدة عندهم ؛ يتوارثها الأبناء عن الآباء !

ونصبح بين يوم وليلة ؛ وقد سقط محمد بن عبد الله : خير خلق الله ؛ من عليائه التى بوأه الله تعالى إياها ، وصار مثلى ومثلك : ممن يحتاجون إلى من يسندهم عند مرورهم على الصراط ، ويدفع عنهم العذاب : حيث لا دافع ، ويمنعهم السقوط حيث لا مانع !

وإن شر ما أخشاه على هذا الدين القويم — وقد أصبح غريبا أو كاد — هو الاستهانة بقدر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام : الذى ليس فيه من البشرية سوى اسمها فحسب !

وسأرتب ردّى على ماجاء فى كتابك حسب ما أوردت من أدلة : رأيتها أنت قوية مقنعة ، ورأيتها أنا ضعيفة واهنة !

أولا — أوردت قول الحكيم العليم ؛ لنبيه الرؤوف الرحيم « قل إنما أنا بشر مثلكم » وخرجت من تأويلها بأنها تقتضى المثلية الكاملة !

بل وذكرت بالحرف : يخطىء كما نخطىء ، ويصيب كما نصيب !

إنسان اختاره الله تعالى من بين سائر مخلوقاته جميعا : ماضيها وحاضرها ومستقبلها . وقال له : يامحمد خاطب أمتك ؛ و « قل إنما أنا بشر مثلكم » ولست ملكا من الأملاك .

فهل يكون ذلك البشر المختار من خيار الخيار : يخطىء ويصيب مثلى ومثلك ممن يخطئون دائماً ، ولا يصيبون إلا نادرآ ، وهى حالة أظن أنك لا تخالفنى عليها ، ولا تجادلنى فيها .

فإذا كنا — وهذا حالنا — لا نرضى أن ينسب إلينا ما نسبته للرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

أترضى وأنت العارف بالله ؛ الملتمس عفوه ورضاه ، الخاشى بأسه وغضبه وعذابه : أترضى أن تنظر إلى حليلة مسلم ، فضلا عن أن يكون ذلك المسلم منك بمنزلة الإبن أو الخادم ؟ !

وأنت خير من يعلم : أن النظر فى ذاته جرم ؛ فإذا كانت المنظور إليها مزوجة : كان الجرم مزدوجا ، فإذا كانت زوجة ابن : كان الإثم بالغاً حد الخروج — لا عن الإسلام فحسب — بل عن الإنسانية ، وعن كل دساتير الفضيلة !

أما تسترك وراء أن هذا أمر واجب التنفيذ ، لأن الله تعالى قضاه ، وأن منفذه : متعبد بتنفيذه . فهو أمر يخرج بنا إلى حد تحليل كل إثم ، وتحسين كل جرم ؛ لأن كل ما يقع فى ملك الله : لا يخرج عن رضاه وتدبيره . وهذا — كما ترى — يخرجنا من عداد الطائفة الناجية والعياذ بالله !

وهنا تطل علينا أنوار آيات الله تعالى البينات : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... لمن شاء منكم أن يستقيم . . . ولا يرضى لعباده الكفر » والآيات التى تؤيد هذا : كثر لا يتسع لها هذا المقام ، ولا تخفى على علمك وفضلك ! وقد توسعنا فى تأويل هذه الآيات وأمثالها فى « أوضح التفاسير » .

فلا مناص حينئذ من أن نعتقد أن المثلية فى القرآن : ليست مثلية مطلقة : بل هى خروج من دائرة الملائكية إلى البشرية : فى الخلقة وحدها « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

وهى سنة الله تعالى مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم . . . هل هذا إلا بشر مثلكم . . . ما هـــذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه . . . ما أنت إلا بشر مثلنا . . . »

وهكذا يسجل المولى سبحانه على خاصة رســله وأنبيائه : البشرية ؛ لا ليحط من أقدارهم ؛ ولكن ليعلم المرسل إليهم : أن هؤلاء المرسلين بشر أمثالهم ، وليسوا ملائكة كما يرغبون ! وإلا صار الإيمان عن طريق القسر والإلجاء !

وحاشا أن يكون الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : الأمين على دعوته ، الأمين على أمته : مثلى ومثلك ، بل ولن تكون هذه المثلية بينه وبين أى نبى آخر . فالأنبياء جميعهم : دون محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام . وهذه — كما تعلم — قضية لا تحتاج إلى تدليل !

وحينما يقول المولى سبحانه فى كتابه المجيد ؛ مخاطبا رسوله عليه الصلاة والسلام « قل إنما أنا بشر مثلكم » فى حين أن المخاطبين جميعا يعلمون هذه البشرية ، ويلمسونها ؛ وهو أمامهم من عداد البشر : فليس ثمة سبب للتعريف ببشريته : سوى ملائكيته فى الخلق ، والسير والسلوك ؛ التى ينكرها أمثالك عليه : فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ثانيا — لست أدرى ماذا أردت بما أوردته من إصابة عمر رضى الله تعالى عنه . وموافقة القرآن له ؟

لقد أبرزت ياسيدى معنى لا يجوز إبرازه بهذه الصورة ؛ وكأنك تريد أن تقول : أخطأ محمد ، وأصاب عمر !

ولم يبق بينك وبين غلاة الشيعة ، الذين قالوا : أخطأ جبريل فى حمل الرسالة إلى محمد ، وقد كان المقصود بها عليا : غير تعديل طفيف ، وهو أن المقصود بالرسالة عمر لا على .

ثالثا — قولك : إن القلوب بيد المولى سبحانه يقلبها كيف شاء . فهذا مما لا يخالفك فيه أحد من المسلمين ؛ لأن ذلك وارد فى الكتاب المستبين ، وفى أحاديث إمام المرسلين .

أما الذى يخالفك فيه المسلمون قاطبة ويحاربونك عليه ، وأنا أولهم : أن الله تعالى قلّب قلب الرسول الكريم ، الرؤف الرحيم ؛ إلى حب زينب ؛ فهذا ما لا يوافقك عليه مسلم ؛ ذاق حلاوة الإيمان بقلبه ، وان وافقك عليه جل المفسرين ؛ سامحهم الله !

وقد قلت فى ذلك ؛ من قصيدة طويلة :

لم يخن نفسه بنظرة إثم   وخبيث النفوس آتت زناها

ولم تسو بين أكرم الرسل عليه الصلاة والسلام ؛ ويوسف الصديق عليه السلام : حيث هرب يوسف مما أحاط به ، وانغمس أرقى الناس خلقا ؛ فيما نبرئ أنفسنا من الانغماس فيه !

يوسف : الممتلىء شبابا وفتوة : تختلى به امرأة مشبعة بالجمال والفتنة ؛ وفى نفس الوقت هى مالكته وسيدته : فيستغيث بربه ، ويولى هاربا مما عساه أن يوقعه فى الإثم ؛ ولم يكن فى هذا الوقت نبيا ، ولا رسولا !

ويأتى محمد بن عبد الله : إمام الرسل ، وخير خلق الله : فتفتنه امرأة هى فى مرتبة زوج الإبن ؛ فلا يلجأ إلى مولاه ليحفظه ، ولا يتهرب مما عساه أن يحط من قدره كبشر ! فلم يبلغ شأو يوسف عليه السلام !

رابعا — ما ذكرته من اجتماع الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه بالنساء .

ومن المعلوم عقلا ونقلا : أن اجتماعه بهن كان للمبايعة والعظة وحدها . كما يدل على ذلك مدلول الآية الكريمة ومنطوقها : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله »

فالاجتماع بهن : لم يكن كاجتماع الفجرة الذين تريد أن تنزل بالرسول الكريم إلى مستواهم . وتقول : إنه كان يحب النساء ، ويعجبه حسنهن !

والذى عجبت له كثيراً ، وضحكت له كثيراً : نصحك لى بأن أخلى نفسى من كل تعصب ، وألا أجعل حرجا على فضل الله تعالى ، وتقييداً لما يريد .

كأنك تريد أن تقول : إن من فضل الله تعالى على رسوله أن وهبه نعمة النظر إلى ما لا يحل ، وقد تابعت الغزالى رضى الله تعالى عنه فى ذلك عفى الله تعالى عنك وعنه ! (انظر تأويلنا لقصة أم المؤمنين زينب . آية ٣٧ من سورة الأحزاب) .

خامسا — انتقلت بعد ذلك إلى حديث : زعم الأفاكون أنه منقول عن الرسول الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه . وهو « أوتيت قوة أربعين فى البطش والجماع » وقد رددنا عليه بما فيه الكفاية فى آخر المبحث المقبل (أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام) .

وإذا كان فضل الرسول عليه الصلاة والسلام لا يتحقق إلا بإتيانه قوة أربعين فى الجماع — كما ذكر فى هذا الحديث المكذوب التافه : الذى تمسكت به — فما رأيك إذا مازعم زاعم أنه أوتى قوة واحد وأربعين ؛ فهل يصير بذلك أفضل من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ؟

وقد أيدت قولك هذا بأن سليمان عليه السلام قد منح قوة سبعين أو أكثر ، وأنه كان يطوف عليهن جميعا فى الليلة الواحدة .

وتقتضى هذه الأقيسة التى سقتها : أن تكون قوة الرسول عليه الصلاة والسلام فى الجماع تعادل ثمانين رجلا أو أكثر ؛ لأنه مما لا شك أفضل من سليمان . وتقتضى المفاضلة أن يكون أعلا منه شأنا فى كل شىء ؛ حتى فى الجماع !

ولماذا نذهب بعيداً ؛ وأمامنا كتب الحديث الصحيحة ، وفيها عن إحدى أمهات المؤمنين . قالت : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة بغسل واحد » فما أشبه طوافه على نسائه بطواف سليمان ؛ لولا أن سليمان يفوقه فى عدد النساء !

وقد رددنا على ذلك الحديث السقيم — فى احدى كتاباتنا — بأن هذا الحديث لا يثبت إلا بإحدى اثنتين ؛ لا ثالث لهما .

إحداهما : أن أم المؤمنين — راوية الحديث — جاءها الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، فاختلى بها ؛ وبعد ذلك خرج من عندها فتبعته خلسة إلى أن دخل بيت إحدى أمهات المؤمنين الأخريات : فتسمعت عليه ، وعلمت أنه قد نال منها ما نال منها . وتبعته بعد ذلك حتى دخل إلى أخرى ، ثم إلى أخرى . حتى علمت أنه أتى نساءه جميعا بغير اغتسال !

ثانيتهما : أن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه قال لإحدى زوجاته رضى الله تعالى عنهن : إنى أتيت فى هذه الليلة ضرائرك جميعا .

وكلا الفرضين : مستحيل عقلا ، وعرفا ، وذوقا ! وليس فيهما ما يدل على مكارم الأخلاق التى بعث الرسول عليه الصلاة والسلام إلينا ليتممها « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وما أشبهنا — فى هذه الحالة — باليهود الملاعين : الذين لم يدعوا نبيا من الأنبياء إلا ألصقوا به فرية :

فقد زعموا أن لوطا شرب من الخمر حتى فقد صوابه ، ثم زنى بابنتيه فحملتا منه !

سادسا — ذكرت فى كتابك حديث تأبير النخل — وفى النفس من صحته الشىء الكثير — وهو على فرض صحته : تعليم للأمة للأخذ بما يقومون به فى حياتهم الدنيا من مصادره ، ويسألون عنه أولى العلم به .

وفيه إشارة دقيقة إلى أن الرياح تقوم فى كثير من الأحيان بهذا التأبير « وأرسلنا الرياح لواقح » فتنقل من ذكور النخل إلى إناثها ، ومن ذكور النبات والأزهار إلى إناثه .

وكيف يستساغ أن يدلى الرسول الكريم — فى أمر من الأمور — برأى لا يعلمه ، ولا يتقنه .

إنها لإحدى المفتريات . وهذا رأيى الذى ألقى الله تعالى عليه آمنا يوم القيامة !

وان لم توافقنى ؛ كعادتك معى دائما : فى التحيز إلى الكفة المرجوحة ؛ سامحك الله ياأخى وعفى عنك !

سابعا — استدللت بالآية الكريمة — وهو من الغرابة بمكان — يقول المولى سبحانه لنبيه الحبيب ، وحبيبه النبى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » وأولت هذه الآية تأويلا لا أرتضيه للرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ؛ وهو خير الخلق قاطبة !

ولا أرتضيه لك ، وأنت من خاصة المسلمين . بل ولا أرتضيه لنفسى وأنا من عامتهم !

فقلت — سامحك الله — إن معنى الآية : أن الرسول المعصوم كان ينظر إلى حسن النساء « ولو أعجبك حسنهن » وأن ذلك كان رفعا لشأن النساء وإعزازاً لهن .

وإذا نسجنا على هذا المنوال التفسيرى الفذ : لظهر لنا أن قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » أن نتزوج منهن ما تناولته تجربتنا ووثقنا من طيبه لنا .

وغاب عنك ياسيدى أن المرأة المسلمة : قد تنقل وصف المرأة إلى الرجل : فيعجبه حسنها . وليس من الضرورى أن يتابعها بالبصبصة : كما يفعل فجار اليوم !

أما وقد انتهيت من الرد بإيجاز على ما قدمته لى فى كتابك من نصح أردت به وجه الله : فها أنذا بدورى أبذل لك النصح مبتغيا به وجه الله ، وإنجائك مما أظنه لاحق بك من لوم !

فأقول لك — وأنت منى بمنزلة الأستاذ — أن تتق الله فى خير خلق الله : الذى خلقه الله من البشر ، وأرسله إليهم ليألفوه ويأنسوا له « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »

خلقه مولاه من البشر ، وليس فيهم جميعا من يساويه ، أو يدانيه !

الرسول الكريم : الذى تريد أن تنزل به إلى مصاف عصاة البشر : هو نفسه الذى خاطبه مولاه سبحانه وتعالى بقوله : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » القبلة التى هى مقصد المسلمين جميعا ؛ وملتقى أرواحهم فى أجل عبادة لله : يدلله مولاه بقوله « فلنولينك قبلة ترضاها » وكرر فى خاطرك لفظ « ترضاها » فإن فيه من الأسرار ما لو تكشف لك : لوصلت إلى مالم تصل إليه بعلمك ؛ الذى قضيت فيه طوال حياتك !

وتذكر ما قلته أنا فى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام (من قصيدة طويلة) :

أى نفس زكية صاغها الله لطه ؛ فبلغت منتهاها !
لم يخن نفسه بنظرة إثم وقبيح النفوس : آنت زناها !
بات يرعى الإله صوما وقوما حيث باتوا والخمر تملأ الشفاها !
جاع خير العباد حيث شبعنا وملأنا البطون حيث طواها !
أنزل الله آية فتلاها لجميع العباد : ما أحلاها !
إن عزمت الصلاة : صل لوجهى ولك القبلة التى ترضاها !

الرسول الذى يخاطبه مولاه بقوله « فإنك بأعيننا » ويقول له « لعمرك » .

هذا الرسول : ليس بالإنسان الذى عنيته فى كتابك ؛ بل هو إنسان من نوع خاص : لا يخطىء — ولو كتب الخطأ على سائر بنى الإنسان — ولا ينظر إلى حليلة ابنه فيشتهاها ، ويقول سبحان مقلب القلوب ! وفى نفس الوقت ينهانا عن النظر ، وهو دون التشهى !

فاتق الله ياعبد الله : فى منزلة رسول الله ، وراجع نفسك فيما قلت وفيما كتبت ؛ عسى أن يغفر المولى سبحانه لى ولك ، وأن يشفع فينا رسوله عليه الصلاة والسلام ! الذى لم يخطىء أصلا ، ولم يتطرق الخطأ إلى ضميره يوما ما : بعد الرسالة أو قبلها !

ويصح لى فى ختام حديثى معك : أن أعتذر عما وقعت فيه مما نهيتنى عنه فى كتابك من التعصب . وعذرى أنه فى نظرى : تعصب فى الحق ، ودفع للباطل : الذى تشهد به كل العقول الذكية الأبية ، وأنت أولها وأولاها !

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

١٩٧٣/٤/١٢ محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب

هذا وقد غضب أستاذنا الفاضل من تعقيبنا على تعقيبه . وحق له أن يغضب !

لأنه قد توهم — مخطئا لا خاطئا — أن فى تعقيبنا ؛ مغالطة له ، أو تحويراً لما أراد أن يثبته ، ونسى — حفظه الله تعالى — أنى قلت ولا أزال أقول : إنى لا أكتب شيئا إلا ابتغاء مرضات الله ، وحسن ثوابه !

وقد ردّ علينا بما ندوّنه هنا إتماما لما بدأناه من بحث . نرجو أن يخرج القارئ منه بنتيجة حتمية : هى عصمة النبى المعصوم عليه الصلاة والسلام — قبل البعثة وبعدها — من الخطإ الذى هو دون الخطيئة طبعا !

وها هو ردّه كما أرسله ؛ وتعقيبنا عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين : سيدنا محمد الرسول الكريم وعلى آله وصحبه وسلم :

١ — لم أقصد بقولى « يخطئ » أن يفعل الخطيئة : إذ هو يستحيل فى حقه أن يرتكب إثما أو خطيئة . وإنما أقصد الخطأ الذى قد رفعه الشارع عنا بقوله صلى الله عليه وسلم « رفع الخطأ عن أمتى والنسيان وما استكرهوا عليه » كما جاء فى القرآن الكريم « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، ولقد نسى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فصلى الرباعية ركعتين ، كما نسى ودخل المسجد وهو جنب ؛ ولم يكن ذلك نقصا فى مقامه الشريف !

٢ — لا يجهل أحد قط أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بملك إذ هو مولود من أب وأم كسائر البشر ، ويجوز عليه ما يجوز على كل بشر مما لا يقدح وينقص من مقامه الشريف ، وبلا شك أن كل مسلم مهما كان جهله ؛ لا يقول إلا أن مقام النبى فوق كل مقام ممن خلق الله جل وعلا ولم يعلوه سوى المقام الإلهى جل وعلا . وأخشى ما أخشاه أن يبالغ المبالغون كل المبالغة فيخرجوه من البشرية إلى الإلهية ، ولقد صدق البوصيرى حيث يقول :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

٣ — ليس كل نظر ولا كل حب محرما ؛ ما خليا من قصد الشهوة ؛ فالحب الشريف لا يقول أحد بمنعه ، ولا بمجرد النظر أن يقول أحد إنه محرم !

٤ — وأما دعوى أن فعل المعصية : تنفيذ لمكتوب فباطل ؛ إذ لا اطلاع لفاعل المعصية على أنها مكتوبة . وإنما قدم إليها لقضاء شهوته ، ولو قدر لأحد أن يطلع على اللوح المحفوظ فيرى أن الله قدر عليه فيه أن يفعل معصية ثم فعلها بقصد التنفيذ لا بقصد الشهوة ؛ لا شك أنه يكون فى ذلك غير آثم !

وأنى لأحد الاطلاع على ما سطره الله تعالى وقضاه فى علمه سبحانه !

٥ — ليكن من المعلوم أن الله جل وعلا يريد المعصية ولا يرضاها لقوله عز وجل « ولا يرضى لعباده الكفر » وإرادة الله جل وعلا إنما تكون لعلم الله أزلا بما يفعله كل أحد ، ولقد رتب سبحانه على كل إنسان من شقاء وسعادة : حسبما علمه الله ، وأن السعيد إنما يتوجه لفعل الخير ، والضد بالضد .

٦ — أما الغرض من قوله سبحانه وتعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » إنما هو للتهديد والإنذار كقوله تعالى « اعملوا ما شئتم » .

٧ — أقول إن المثلية بعيداً عما خصه الله به ، وميزه : هى مثلية مطلقة فيأكل ويشرب ويتزوج . . . الخ .

٨ — القصد من ذلك تحديد قدرهم ، وأنها ليست خارجه عن قدرة البشر ؛ حتى يأتوا لهم ما يريدون من اقتراحات .

٩ — لا يشك أحد أن الرسل من البشر ؛ فذكر البشرية للعلم بأنهم لا يستطيعون فوق ما يستطيعه البشر ، فليس بمقدور أحد منهم أن يخسف بقرية أو يقلبها كما حصل من الملائكة .

١٠ — سبق أن قررت وأقرر ، وأدين الله به : أن مقام محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعلوه سوى المقام الإلهى .

١١ — ليكن فى معلومك أنى لم أكن المصوب لعمر رضى الله تعالى عنه إنما المصوب له الإله الحكيم الخبير ، وأن موافقة عمر رضى الله عنه للقرآن الكريم فيما يزيد على ثلاثة عشر موضعا ، إنما ذلك هو مزية له ، وهذه المزية لا يمكن لأحد أن يقول بتفضيل عمر على أبى بكر رضى الله عنه ، فضلا عن تفضيله للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومن اعتقد شيئا من ذلك فهو خارج عن الدين ، مارق والعياذ بالله !

١٢ — سبق أن قلت : إن كل حب ليس إثما . فحب الرسول صلى الله عليه وسلم لزينب أو خلافها من الحب الشريف الذى لا غبار عليه ، على أنى أقول : إن الذى أخفاه الرسول عليه الصلاة والسلام فى نفسه هو اعلام الله إياه بتزويجه زينب ، وليس ما أخفاه فى نفسه حب زينب ، كما ذهب إليه الكثير .

١٣ — أقول إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يجتمع بالنساء ليبايعهن وليعظهن ، وقد ذكرت فى ردّى آية المبايعة وحديث الوعظ فكيف بك تحوّر الموضوع وتنسب إلىّ ما يستحيل أن يكون منى .

١٤ — أقول : إن وجود أحد يزيد على الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم لا يقتضى أفضليته عليه ؛ وإلا للزم أن نقول إن سليمان عليه السلام أفضل : لما خصه به من إيتائه ملكا لا ينبغى لأحد بعده . كما قال عز وجل حكاية عن سليمان « رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . . . »

وأن الحديث القائل « أوتيت قوة أربعين . . . » لم أذكره فى ردّى ، ولم أقل به .

١٥ — قلت وأقول : إن المزية لا تقتضى الأفضلية قط .

١٦ — هذا الحديث لم أذكره ، ولم أقل به ، أما بخصوص سيدنا سليمان عليه السلام هو الذى حدث عن نفسه وأخبر كما جاء فى الحديث بقوله « لأطوفن على نسائى . . . إلى أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم آخر هذا الحديث : لو قال سليمان عليه السلام إن شاء الله لأتت كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله » .

١٧ — أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهن منزهات أن يتسمعن .

١٨ — سبق أن قررت أنه لا يلزم من النظر أن يكون مصحوبا بشهوة بهيمية ؛ لأن ذلك مما لا يليق به صلوات الله تعالى عليه وسلم فنخلص من ذلك أن النظر البرئ لا مانع منه أصلا . خصوصا أنه قد أرسل إلى الخلق عامة ذكورهم وإناثهم ، فكيف لا يجتمع بالنساء ويبدى لهن ما شرعه الله لهن ؟ كيف ! وانهن نصف المجتمع ، وأولى بالعناية والرعاية والعلاج لقصور عقولهن .

وأما قول الله عز وجل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » مشروط بشروطه ، ومقيد بقيوده ؛ فالعدد محدود وشرطه الاستطاعة على النفقة ومؤن النكاح ، كما جاء فى الحديث الشريف « يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة

فليتزوج . . . الخ » وهناك شرط أهم وهو العدل بينهن : فى الكسوة والنفقة والقسم ، وبدون هذين الشرطين أو أحدهما : لا نكاح .

وما المانع أن يقصد قول الرسول صلى الله عليه وسلم « حبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء » وهو حديث ثابت رواه : أحمد فى المسند ، والنسائى ، وابن ماجه : أن يقتلع من صدور العرب جذور بغضهم للنساء ، فلقد كانوا يجعلونهم كالمتاع ويئدونهن خشية العار ، حتى جاء الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالعمل على إنقاذ نصف المجتمع من هذا الوباء .

١٩ — نصيحتك مقبولة على العين والرأس ؛ لو أنها مبنية على فهم صواب من جهتى ؛ لأن مثلى لا يجهل قيمة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وعصمته ، وأن اعتقادى الجازم بأنه فوق كل ما خلق الله جلّ وعلا ولولاه ماكانت الدنيا ؛ فهو النور الإلهى الذى جعله الله أصلا للبشر فصلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وسامحك الله حيث أخطأت الفهم فىّ ، وجل من لا يخطئ !

٢٠ — كما دلله ؛ كما تقول ، وجه إليه باعتباره عبداً له النواهى والعتب حيث يقول الله عز وجل « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » ، « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ... » « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ... » « عفا الله عنك لم أذنت لهم ... » « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . . . » إلى أن قال « وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى فأنت عنه تلهى » .

فالرسول الكريم أيها الأخ الفاضل : هو عبد من عباد الله الصالحين ؛ شرفه الله ، وجعل مقامه فوق كل مقام ؛ مأمور من قبل الله ؛ كما نحن مأمورون ، ومكلف كما نحن مكلفون .

٢١ — ومن نسب إلى الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينظر نظرة إثم ، أو يخون : إلا المشركون المنافقون . أما المسلمون مهما تنزلوا وقل علمهم : فهم بالضرورة ينزهون الرســول صلى الله تعالى عليه وسلم عن كل ما يؤثم ! فقل لى بالله من أين جاءتك هذه الأفهام والأغلاط التى تريد أن تلصقها ببرىء مثلى ؛ وبمن يقدر الرسول العظيم صلى الله تعالى عليه وسلم قدره ، ويعظمه حق تعظيمه !

على أبو طالب

٩ / ٤ / ١٩٧٢

هذا وقد حاول الأستاذ الفاضل — فى رده هذا — التخلص مما ألصقه بنفسه، ولم نلصقه نحن به؛ ولازلت أكرر أن ما ارتكبه: زلة عالم؛ تزول عنه بزوالها عن إصراره!

على أن مانفاه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الخطأ — كما زعم أخيراً — لم يكن خطأ، بل هو خطيئة بأجلى معانيها، وأقبح مراميها!

فلم يقل أحد: إن رؤية زينب بنت جحش؛ وهى امرأة أجنبية متزوجة؛ واشتهاؤها، والأسف على الحرمان منها؛ بقوله: سبحان مقلب القلوب!

لم يقل أحد: إنها خطأ؛ وليست بخطيئة.

وقد أبرز الأستاذ فى تعقيبه: هـــذه الخطيئة واضحة بجاجلة، الأمر الذى دعانى إلى ما كتبته محتماً!

وقد أصر على أن الرسول قد نسى فصلى الرباعية ركعتين. وأغفل ما ذكرته فى تعقيبى من أنه لم يكن نسيانا — بالمعنى المفهوم — بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: حينما قال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله؟ فقال «كل ذلك لم يكن» أى لم تقصر ولم أنس.

وقد تمسك بأن الرســول عليه الصلاة والسلام: مولود من أب وأم كسائر البشر. وهذا مالا أخالفه عليه، وإنما الذى خالفته فيه: أن هذا البشر المولود من أب وأم: ليس كسائر البشر؛ وأنه لا يقع فيما يقع فيه جميع البشر أمثالنا فكيف وقد أوقعه فيما لا يرضى، ولا أرضى الوقوع فيه: وهو النظر إلى مالا يحل وتشهيه!

وهذا واضح فى تعقيبه عند قصة زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها.

أما مارمانى به — تلميحا — من المبالغة فى حق الرســول مبالغة تخرجه من البشرية إلى الإلهية: فهذا الذى أبرىء نفسى منه: متمسكا بما تمسك به من قول البوصيرى رضى الله تعــالى عنه:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وقد قال البوصيرى: واحــكم بمــا شئت مدحا؛ ولم يقل قدحا. وقد مدحته أنا بما هو دون حقه؛ فى حين أن أستاذنا الفاضل قد تمسك بما يقدح فى مقامه الكريم؛ جريا وراء أناس أساءوا فهم قدره العظيم الذى لا يصل إلى معرفته سوى منشئه ومبدعه تعــالى وتقدس عن المثل والنظير!

وأزيد على ما ذكره من قول البوصيرى رضى الله تعالى عنه :

دع ما ادعته النصارى . . . الخ

فإن فضل رسول الله ليس له حد ... فيعرب عنه ناطق بفم

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

ولا أدرى ماذا يعنيه من الحب الشريف الذى وقع فيه سيد الخلق ؟

وأى حب شريف هذا ؟ أن يحب الرجل حليلة رجل مسلم ، فنقول : إنه كان حباً شريفاً ، فبئس هذا الحب ، إذا صدر من عامة الناس : فما بالك بخاصتهم ؛ بل فما بالك بخيرة الخلق وصفوتهم ! ؟

أما ما أردت ياسيدى أن توقعنى فيه من خضم الشكوك والرزايا ، التى ابتلى بعض المسلمين بها : من أن الله تعالى يريد المعصية ولا يرضاها . فهو قول مردود بمثله ؛ من سلسلة المجادلات البيزنطية ؛ التى نظمها الأوائل ؛ فقالوا جوابا على ما قلت : كيف يتم فى كون الله ما لا يرضاه الله ؟

ولا نملك حيال ذلك سوى التسليم ، والتمسك بقول الحكيم العليم : « لمن شاء منكم أن يستقيم » « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

وقولك إن المثلية : مطلقة بعيداً عما اختصه الله تعالى به وميزه .

وردى على ذلك : أن المولى سبحانه ؛ وقد اختصه عليه الصلاة والسلام بمزايا بلغت حدّ العجز عن الإحاطة بها ؟ وأنه لا يماثلنا فى شىء : إلا كونه من أب وأم ، ومن لحم ودم !

أما قولك : إن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يستطيعون فوق ما يستطيعه البشر . فهو قول مردود أيضا : لأن البشر ليس فيهم من يستطيع أن يدعى العصمة لنفسه : وهم معصومون جملة وتفصيلا !

أما تصويبك لعمر ؛ فلم أقل : إنك الذى صوبت ما فعل ، بل أنا أعلم علم اليقين أن المولى سبحانه هو الذى صوب فعله — هذا إذا صح ما ورد فى ذلك من أحاديث .

وإنما الذى عتبته عليك : هو إبرازك صواب عمر مقارنا بخطإ الرسول عليه الصلاة والسلام ، إبرازاً قد يسىء إلى مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ بل قد أساء !

أما حديث « حبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء . . . . . » ومبلغ ثبوته عند الرواة : فلسنا بسبيله الآن ، وإنما الذى أقصده تضافر الأحاديث على حب الرسول للنساء ، وقوته فى الجماع ، وقدرته على إتيان العدد العديد منهن فى الليلة الواحدة بغسل واحد !

كل هذا يؤيد ما ذهبت إليه وأذهب إليه دائما من أنها مؤامرة اسرائيلية : ترمى إلى الحط من قدر الرسول الكريم ؛ الذى بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق : فأرادوه متمماً لأحط الخلال ، وأقبح الخصال !

وقد أخذنا مادسوه : قضية مسلمة ؛ بسذاجة الأبله ، وبساطة الذى لا يتفهم . وبذلك أنجحنا مسعى الأعداء ، وكفيناهم مؤنة الإقناع !

وأما قولك : إن أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام منزهات أن يتسمعن . فهذا ما أوافقك عليه تمام الموافقة ؛ وقد سقت ماسقت مبرهناً على عدم معقولية هذا التسمع !

كما قلت : إن النظر لا يلزم أن يكون مصحوبا بشهوة بهيمية : لأن ذلك مما لا يليق به صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

وأقول : كيف يكون النظر بلا شهوة ؛ وقد زعمت مع الزاعمين أنه صلى الله تعالى عليه وسلم . رأى زينب فأعجب بحسنها ، وقال سبحان مقلب القلوب ! وأنها ذكرت ذلك لزوجها زيد ؛ فطلقها .

وقد زاد غيرك — ممن جرفهم تيار هذا الإفك — بقوله : إن الرسول الكريم طلب من زيد أن يخطبها له !

وزاد الغزالى — عفا الله تعالى عنا وعنه — بأن من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام : أنه إذا رأى امرأة مزوجة فأعجبته : وجب على الزوج تطليقها وتزوجها الرسول .

وهو كما ترى كلام غير معقول ، وغير مقبول ؛ بل وهو بالكفر أشبه !

إنسان كمحمد ؛ يرسله الله تعالى على قمة المجد الأخلاقى : ليكون نبراسا لسائر بنى الإنسان ؛ فيتعشق حليلة ابنه ، ويفجعه فيها ؛ وبعد ذلك يطلب منه أن يخطبها له !

ورجل كالغزالى : ملك ناصية العلم والفضل ، يزعم أن محمداً يجوز له أن ينظر إلى حلائل المؤمنين فيعجب ببعضهن ، ويجب على أزواجهن التخلى عنهن له !

ومثل هـذا الإفك الفاضح الواضح : يلقى رواجا بين فضلاء المسلمين : الأمر الذى يلصق بمن يصدقه الغفلة والوقوع فى الضلال ؛ بل الوقوع فى الكفر والعياذ بالله (انظر تأويل آية ٣٧ من سورة الأحزاب فى أوضح التفاسير) .

ومثل هذا لا يصح أن يكون تكريما للمرأة ، وإعزازاً لها واقتلاعا لجذور بغضها من القلوب ؛ كما قلت .

وإلا فأنا على أتم استعداد لإعزاز وتكريم كل امرأة جميلة ألقاها — مزوجة وغير مزوجة — مثل تكريم الرسول لها وإعزازه !

وتبأ لمن يقول ذلك ، أو يصدقه فيَّ أو فيك ؛ فما بالك بسيد المخلوقات وإمام الدنيا والآخرة ، وشفيع العصاة والمذنبين !؟

أما قولك : إنى أخطأت الفهم فيك : فهذا ما لم يدر بخلدى اطلاقا فأنت أنت المحب للرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، العارف بقدره ، المقـــدر لفضله ، لولا بعض الهنات ، وتعالى من تنزه عن السيئات !

وقدرك محفوظ ، وفضلك ملحوظ ، ونيتك لا يعتريها شك ، ولا يعتورها عوار !

أما ما نسبته إلىّ من إلصاق بك الأغلاط والاتهامات التى أنت برىء منها : فما كان لى أن ألصق بك أو بغيرك من المؤمنين غلطا ، أو اتهاما ؛ وإنما دافعت عن شك أوقعك فيه غيرك من كبار العلماء والمفسرين الأقدمين ، وكأنك تمسكت بقول من قال : من قلد عالما ، لقى الله سالما .

ومن عادتى ألا أقلد أحداً — مهما عظم قدره ، وعلا ذكره — ما دام تقليدى له يفسح لى مكانا فى الجحيم ؛ والعياذ بالله فقد وهب لى مولاى عقلا أعقل به نفسى عن القبيح ، وأمنعها عما يوقعها فى الإثم ! وهو لا شك مؤاخذى بما عقلته ، محاسبى عما فهمته ؛ لا ما نقلته ! وهو جل شأنه القائل « لقوم يعقلون ... ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون... إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ... أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » .

وأخيراً أريد أن أهمس فى أذنك ؛ وأنت الناصح ، صاحب العقل الراجح : إن ديننا المتين ، وكتابنا المستبين ، ورسولنا الأمين : كل ذلك أقض مضجع أعداء الدين ؛ من اليهود الأفاكين : فنصبوا الأحابيل ، ونسجوا الأباطيل ، ودسوا فى الحديث ما ليس فيه ، ونسبوا إلى الرسول الكريم ما نبرأ من نسبته إلينا ، ولسنا من علية القوم ، ولا من أوساطهم ؛ فكيف بخيرهم جميعا ؟ !

ونصيحتى إليك ، وإلى كل مؤمن : أن تضع موضع الشك كل حديث ترتاب فيه العقول ، ولا تدع للشيطان سبيلا فتصدق كل مقول ، يجافى كل معقول ! أرشدك الله تعالى إلى ما ينجيك ، ولا يؤذيك !

وشكرى لك وافراً وسلام الله عليك سابغاً !



تعدد الزوجات

القرآن الكريم : الذى أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء : لم يدع شيئاً لصالح البشرية إلا بينه ، ولا أمراً فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فصله .

وقد كان أوائل هذه الأمة رضى الله تعالى عنهم حين يحزبهم أمر ، أو تعترضهم مشكلة يهرعون إلى كتاب ربهم : فيطيعونه فيما أمر ، وينتهون عما نهى عنه وزجر !

وقد جاء من بعدهم ناس تجرأوا على الكتاب العزيز : فأولوه طبق هواهم ، وفسروه تبعاً لمقاصدهم ؛ حتى غدا القرآن الكريم — الذى لا لغو فيه ولا تأثيم — يساق من فئتين : حجة على قضيتين مختلفتين متنافرتين !

فهذا يقول : إن الله تعالى قد أباح تعدد الزوجات ؛ ألا ترى إلى قوله « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

وآخر يقول : إن الله تعالى نهى عن التعدد نهياً فصيحاً صريحاً ؛ ألا ترى أنه تعالى قيده بالعدل بقوله « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وقرر عدم استطاعة العدل بقوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

ولا يخفى أن ذلك يجعل فى القرآن ؛ الذى هو كلام الرحمن : تناقضاً واختلافاً ؛ تنزه عنه كلام بعض البشر ؛ فما بالنا بخالق البشر !

وقد قال تعالى فى محكم كتابه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وأى اختلاف أعظم من هذا اللغو ؛ الذى لم يأت به القرآن ؛ بل قذف به الشيطان فى قلوب الغافلين من بنى الإنسان !

فإذا ما بحثنا قضية التعدد على ضوء ما جاء به القرآن — من غير ما تحيز إلى فئة ، أو انتصار لجنس — نجد أنه قد أباح التعدد إباحة واضحة ؛ لا لبس فيها ولا غموض ؛ ولا أدل على ذلك من قوله جل شأنه « فانكحوا ما طاب لكم » وهو أمر يدل على الإباحة المطلقة ؛ كقوله تعالى « كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ... كلوا من طيبات ما رزقناكم ... كلوا من ثمره ... فكلوا مما غنمتم » .

وحين أورد تعالى قيد العدل فى قوله « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » علم أن هناك صنفان من التعدد : أحدهما : تعدد مع العدل ، وثانيهما : تعدد مع الجور . والصنف الأخير : هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة .

يأتى بعد ذلك ما زعمه البعض — ومن هذا البعض بعض العلماء سامحهم الله — فقد زعموا أن العدل غير مستطاع بنص الآية الأخرى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم »

وغاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق — كما فهموا — لكان تناقضاً ولغواً !

والقرآن الكريم منزه عن ذلك تنزيهاً كاملا .

هــذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول

إذ ليس بمعقول أن يقول الله تعالى : تزوجوا من تحبون ، متى تشاؤن — فى حدود الأربع — فإن خفتم الجور فواحدة فحسب . وبعد ذلك يقول : الجور محقق فى كل واحد من راغب التعددة :

والجور غير محقق فى كل من عرفوا النبى وصدقوا التنزيلا

وكان الأحرى — إذا كان هــذا المعنى هو المقصود — ألا يذكر التعدد أصلا : إباحة أو حظراً .

أما وقد ذكر التعدد فى القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية فى شتى العصور — بالقول والعمل — فقد وجب تأويل الآية القائلة بعدم استطاعة العدل ، بما تأولها به أئمة الشريعة ، وأساطين التفسير ؛ الذين قالوا بأن العدل غير المستطاع : إنما هو العدل فى المحبة ؛ إذ أن قلوب بنى الإنسان ، بين يدى الرحمن : يصرفها ويقلبها كيف شاء « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » .

لذا كان الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه : يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » يعنى المحبة القلبية .

هذا وباقى الآية الكريمة : تدل دلالة قاطعة على قيام التعدد وتنظيمه « فلا تميلوا كل الميل » عن المرغوب عنها « فتذروها كالمعلقة » التى ليست بعانس ، ولا بذات بعل .

وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة : فها هو صريح القرآن ، وها هو الإجماع ، فإذا ما ذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها : وجدنا قول الرســول عليه الصلاة والسلام « لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها »

ومفهوم المخالفة : يقتضى جواز الجمع بين من عداهن . وقد جاء أيضاً فى قوله تعالى « وأن تجمعوا بين الأختين » جواز الجمع بين من عداهما .

وقد أمر صلى الله تعالى عليه وسلم غيلان الثقفى — حين أسلم وله عشر نسوة — أن يستبق أربعاً منهن .

كل هذا يدل دلالة قاطعة ، لا تقبل الشك أو الجدل : أن التعدد من بدهيات المباحات ، وأن التكلم فى منعه أو تحريمه : يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله !

وهناك نقطة هامة : هى مصلحة المرأة : متزوجة على أخرى ، أو متزوجا عليها بأخرى .

فأما الأولى : فلا يوجد عقد زواج إلا وأحد طرفيه امرأة : تملك زمام أمرها بيدها ، ولا تتزوج إلا برضاها ، ووفق هواها ، فإذا كان ذلك يضرها : ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج ، وإن كانت فى عسر من أمرها ، ولا تستطيع أن تقوم بأودها ، فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يدفع عن كاهلها عبء الفاقة ، وذل العوز ، وغائلة الجوع !

وأما الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها ، فلا بأس من أن يسن تشريع يبيح لها طلب الطلاق ، ولا أغالى إذا أنا قلت : إن شريعتنا السمحة تبيح ذلك ، خاصة إذا تدلى الزوج من أعلى إلى أدنى : فتزوج على الأولى بمن دونها حسباً ونسباً : كأن يتزوج بماجنة على عفيفة ، وبخسيسة على شريفة ، وبخضراء الدمن[1] على عريقة النسب ! فهنا يتوفر الضرر الموجب للطلاق فى هذا الزواج !

وقد روى أن بنى هشام بن المغيرة : ذهبوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستأذنونه فى تزويج بنت أبى جهل بن هشام لعلى بن أبى طالب ، فغضب صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يأذن بهذا الزواج إلا على شريطة طلاق ابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها ، حتى لا تطعن فى كرامتها ، أو تفتن فى دينها . وقال « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن يزوجوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى ، إن ابنتى بضعة منى : يريبنى ما يريبها ، ويؤذينى ما يؤذيها » !

فمن هذا يعلم أنه لا يجوز إيذاء الزوجة بالتزوج عليها بمن هى دونها حسباً ونسباً .

وليس فى هذا ما يؤيد — من قريب أو بعيد — مزاعم المنكرين للتعدد .

---

١ — خضراء الدمن : المرأة الحسناء ؛ فى المنبت السوء . كما جاء فى الحديث الشريف .

وهب أن فى تعدد الزوجات ضرراً يلحق ببعضهن — كما يتوهمون — فلا بد أن فيه خيراً كثيراً غفلوا عنه، ولم يفطنوا إليه «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم».

فقل — يارعاك الله — لمن يعارض أحكام الله: «أأنتم أعلم أم الله»؟

هذا ويجب أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف، لا بقصد الإسفاف أو الإسراف. ولا يكون بقصد الإضرار بالزوجة الأولى؛ كما كانت تفعل العرب فى الجاهلية.

قال شاعرهم يهدد امرأته بالضرة:

أكلت دماً[1] إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط[2] طيبة النشر[3]

فجعل زواجه الثانى: لكيد الزوجة الأولى وترويعها؛ ونسى أن واجبه الأول: أن يوفر لها أسباب الراحة والسعادة؛ لا أن ينقب عن تعاستها وإشقائها. وأنه إن أحبها أمسكها وأكرمها، وإن كرهها طلقها ولم يظلمها!

فساد التقنين بعـــدم التعدد:

هذا وقد حرمت بعض الحكومات المسلمة التعدد؛ كما تم ذلك فى تونس الشقيقة، وحددوا عقوبات لمن يعدد الزوجات.

وقد بلغ من بشاعة هذا التقنين الفاسد: أنهم إذا ضبطوا رجلا عدد زوجاته: كان عليه أن يدفع هذه التهمة بأن يزعم ويقسم أنها خليلته، وليست بحليلته! وبذلك يخلص من عقوبة سنها أناس لا يمتون إلى معرفة الله تعالى بسبب، ولا يعبأون برضاه من سخطه.

ولم يقفوا — فى مخالفتهم — عند تعدد الزوجات فحسب، بل تدخلوا فى المواريث فشوهوا نظام الله تعالى الذى لا يعدله نظام![4]

أما ما تلوكه ألسنة الطاعنين فى التعدد: من فساد العلاقات بين الإخوة غير الأشقاء. فهى دعوى فاسدة: فكم قد رأينا شقيقين يقتتلان، وأخوين لأب متصافيين متحابين!

---

١ — يدعو على نفسه بالفقر الشديد؛ وقد كانوا حين يحل الفقر بأحدهم يفصد ناقته وتلقى دمها فى وعاء حتى يتجمد؛ فيشويه ويأكله.

٢ — يكنى بطول رقبتها؛ وهو من صفات جمال المرأة.

٣ — النشر: الريح الطيبة، أو هو رائحة فم المرأة وأعطافها عند قيامها من النوم.

٤ — حيث منعوا مشاركة الأعمام للبنات؛ فيما تركه لهم أبوهم، وقد أحلها الله تعالى فى محكم كتابه.

هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاعنين : أن البلدان الأخرى التى حرمت التعدد : فشا فيها الفجور ، والمخادنة ، وملئت فيها الملاجىء بأبناء الزنا . والبيوت بالأبناء غير الشرعيين .

ولماذا نتعب أنفسنا فى تحبيذ رأى رآه خالق الناس للناس ، وشرعه لهم ؟ ولماذا نفاضل بين رأى بعض البشر ، ورأى خالق البشر ؟ !

إن خالق الناس ، ومن هو أدرى بالناس من الناس : قال بالتعدد ؛ فهل يجوز لإنسان — مهما أوتى من علم وفهم — أن يأتى فيقول : لا ؛ إن التعدد نظام بغيض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟ !

هذا : ولا يخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة ، وحكمة بالغة : فإن الرجال — فضلا عن زيادة عدد النساء عليهم — معرضون لنقصان مستمر ؛ بسبب قيامهم بمشاق الأعمال ، وبأعباء الحروب وغيرها ، وتعرضهم للمهالك . وليس من الحكمة فى شىء : أن ندع جانباً كبيراً من بناتنا بدون إحصان !

إن الأوروبى — مثلا — لا يبيح له دينه التعدد ؛ لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات !

ويرى والد الفتاة فتاته مع عشيقها : فيسر ويغتبط ؛ بل ويمهد لهما جميع الوسائل ، وكافة السبل المؤدية لراحتهما ، وطمأنينتهما .

أما ديننا الذى يحرم على الرجل : النظر إلى المرأة ، ويحرم على المرأة : النظر إلى الرجل : فقد كان لزاماً عليه أن يوجد لهذا الضيق فرجا ، ومن هذا المأزق مخرجا : فجعل النكاح مكان السفاح ، ووضع الحلال مكان الحرام ! وإلا فمن للعوانس وربات الخدور ؟ ألهن العهر والفجر[1] ، ولنا العفاف والطهر ؟ أم لهن الجحيم ، ولنا النعيم ؟ !

وهل من المستحسن أن يكن ضرائر ، أم يكن فواجر ؟

وقد شنع فيلسوف الإسلام المرحوم الشيخ محمد عبده على التعدد . وهى سقطة شائنة ؛ رغم ما كان عليه رحمه الله تعالى من رأى قويم وفكرة صائبة .

وإذا تأملت فى الشرائع الوضعية التى أبطلت تعدد الزوجات : تجدها اضطرت إلى قبول ما هو شر منه : إذ فتحت باب التدهور الأدبى على مصراعيه . فاضطرت إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ، وبمشروعية الوساطة فى هذه العلاقات !

---

١ — الفجر : الانبعاث فى المعاصى والزنا ، وفجر : فسق وكذب .

فانحط الذوق الأدبى فى المجتمعات : بدرجة أنهم يفخرون ويتباهون بما يوجب الخزى والعار ! بل بما يستوجبون عليه شرعاً : الجلد والرجم ، والقتل !

ثم انتهى أمر هذه الشرائع بقبول مبدإ تعدد الزوجات ، ولكن تحت ستار المخادنة البغيض !

والمخادنة هذه : زواج حقيق ، لكنه غير مسجل بعقد ، أى إن الرجل لا يتقيد حيال المرأة بأى حق من الحقوق ؛ فتكون عرضة للطرد بأولادها — فى أى وقت شاء ، وفى أى يوم أراد — دون أن يكون لها أية حقوق عند الرجل الذى قد يكون عاشرها سنين طويلة ، وأضاع زهرة شبابها ، وبهجة حياتها !

لكن الإسلام — الذى كانت مهمته الأولى : المحافظة على حقوق الأفراد والجماعات — شرع مبدأ تعدد الزوجات : ليحمى المرأة من عدوان الرجل الظالم . فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها معه إلا على حالة واحدة : وهى أن تكون زوجة ، لها ولأولادها حقوق مقررة ؛ لا يستطيع الرجل بحال التنصل منها . وفى الوقت نفسه حرم الزنا ، والمخادنة ، وجميع ما من شأنه الحط من مستوى المرأة ، وإنزالها من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية !

والآن أمامنا فيما يتعلق بالحياة الجنسية نظامان :

أحدهما يبيح تعدد الزوجات ، ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الآثمة ، ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض ، الخائضين فى ضروب الفحشاء والفساد !

والآخر يحـــرم تعدد الزوجات ، ويبيح سائر العلاقات الآثمة ، ويجيز التلاعب بالأعراض ، والخوض فى ضروب الفحشاء !

طبعاً لا يوجد إنسان عنده ذرة من عقل : يختار القسم الثانى ، ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماوات !

وفى أى دين ، أو أى نظام أو أى عرف : تكون الخليلة أفضل من الحليلة ؟ !

ويقولون أيضاً : إن الرجل الذى يعقب أولاداً من زوجتين ؛ يعتبر فى نظر المجتمع آثماً ؛ لأنه يخلق العداوة بين نسائه ، والبغضاء بين أبنائه !

فهل معنى هـذا أن الرجل الذى يعقب أولاداً من امرأتين إحداهما شرعية ، والأخرى غير شرعية : لا يعتبر آثماً ولا يكون خالقاً للعداوة بين نسائه وأبنائه ؟ !

والذى يدعو للعجب : أن يقوم أناس ينتصرون للمرأة ، ويدعون إلى عدم التعدد ،

ويصفونه بأشنع الصفات ، ويسمونه بأقبح السمات ؛ مع أن النتيجة المحتمة لما يدعون إليه : هى انتشار الزنا ، وفشو الأمراض ، وهتك الأعراض !

وهل من الانتصار للمرأة أن يوقعوها فى هذا الحضيض ؛ لتصبح زوجة مجردة من الحقوق ؛ لرجل يستغل طيباتها ؛ حتى إذا قضى طلبته ، وأشبع نهمته : ألقى بها وبأولادها إلى حيث تتكفف الناس ؛ وقت لا تجد عطفاً عليها من الناس ؟!

هذا وقد ثار فى الآونة الأخيرة الجدل العنيف بين بعض السيدات المشتغلات بالكتابة ، وبعض الرجال المشتغلين بالتقنين ، وقد كاد هذا الخلاف أن يتعدى الفريقين المتخاصمين المتخالفين إلى كل أسرة ؛ تتكون من رجل وامرأة ، وأصبحنا بين عشية وضحاها نرى فى كل بيت خصومة وتنافراً يتناولان ما يراه كل طرف من حق له قبل الآخر .

وهى ظاهرة خطيرة : يجب الوقوف عندها ، والحد من امتداد آثارها .

وقد زاد من الإساءة إلى المرأة وحقوقها : مساندة بعض الكتاب لها فى آراء تخالف نصوص الدين الذى ننتسب إليه ، والذى نظم علاقات المرأة والرجل تنظيما لا يدع مثاراً للشك ، أو مجالا للاجتهاد !

فالقرآن حينما يقرر فى بلاغته وبساطته : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » قد أثبت أن للمرأة حقوقاً مثل ما للرجل : من الحب ، والعطف ، والرعاية ، ولين الجانب ، وحسن المعاملة . وهى كلها صفات يجب تبادلها بين الجنسين !

كل هذا تقره المرأة ، وتلهج به دائماً فى أحاديثها ؛ بل فى أحاسيسها ؛ ولكننا حين نكمل هذه الآية بقول الحكيم العليم « وللرجال عليهن درجة » نرى فى وجوه بعضهن الامتعاض والاشمئزاز !

كيف يكون للرجال درجة ؛ وقد خلقنا من جنس واحد ، وطينة واحدة ؟!

وحينما ينص الكتاب الكريم — فى صراحة لا تقبل التأويل أو التبديل — « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » تثور ثائرة — لا أقول النساء فحسب — بل وبعض الرجال ؛ الذين يرون فى تلك المهاة فضلا لهم وفخراً ، وما هو بالفضل ولا بالفخر ، فإن سائر المقننين والمشرعين فى شتى أنحاء المعمورة : قد أجمعوا على أنه لا اجتهاد مع النص .

ذلك فى القوانين الوضعية ؛ التى وضعها البشر المخلوقون ، الذين هم كثيراً ما يخطئون ويجانبون الصواب !

لكن القرآن الكريم : وهو من لدن حكيم عليم ، غفور رحيم ، عالم بالخفيات والمكنونات ؛ إذا قال حكما صريحا فصيحا : جاز فى نظرهم أن يجتهدوا فيه ، وأن يعيبوا عليه !

وهناك ما يسمونه بالتطور العالمى ، والمفاهيم الصحيحة ، واتهام بعض السادة رجال الدين بإغلاق عقولهم دون التفهم ، وتشبثهم ببعض النصوص والأحاديث ، وضيق أفقهم !

وثالثة الأثافى : أن يكتب كاتب مرموق فى الجرائد السيارة بدوران الحكم مع العلة ، وجوداً وعدما .

وهذا الرأى — إن وجد له سامعا — فإنه يؤدى حتما إلى ارتكاب كل الموبقات .

فالزنا ؛ سبب حظره وتحريمه : اختلاط الأنساب ؛ فإذا أمن اختلاط الأنساب : حل الزنا وجاز !

والخمر ؛ سبب تحريمها : اغتيال العقول . فإذا أمن ذلك الاغتيال : حلت لنا الخمر أيضا ؛ وقس على ذلك سائر المحرمات !

فالسرقة جائزة ، والربا جائز ، واغتيال الأعراض والأموال جائز أيضاً !

وهكذا ينفذ العصاة الطغاة — من هذه القاعدة الفاسدة — إلى كل ما يبتغون ويشتهون !

والقرآن الكريم حينما يأمر الرجل بالعدل : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فلا يعدل . وبعدم الميل « فلا تميلوا كل الميل » فيميل . وبالمودة والرحمة « وجعل بينكم مودة ورحمة » فلا يواد ولا يرحم . وبإمساك الزوجة — ولو كانت مبغوضة — « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فلا يمسكها كارها لها !

كل هذا ليس عيبا فى دين الله : يستوجب إصلاح الدين وتعديل شرائعه ! ولا نقصا فى كتاب الله يستوجب إكماله وتصحيح أحكامه ! إنما هو عيب فى طباع البشر ، ونقص فى خلقهم ، وفساد فى عقولهم !

فالسرقة : حرام ؛ وجزاؤها القطع . والزنا : حرام ؛ وجزاؤه الرجم . وشرب الخمر : حرام ؛ وجزاؤه التعزير والضرب بالنعال !

ولكن المشرع المخلوق : عدل فى أنظمة الخالق ؛ فجعل عقوبة السرقة الإكرام فى السجن : بالطعام والملبس والترفيه : فزادت السرقة ! وألغى عقوبة الزنا ففشا ؛ والخمر فزادت انتشاراً ودماراً !

فأين عيب الدين إذن ؟ وأين قصور القرآن ؟ !

هذا : وقد قامت المحافل النسائية بجحافلها : تطلب أن يكون لها رأى فى هذه التشريعات التى تتعلق بها تعلقا واضحا : أليست نصف الأمة ؟ أليست تعامل بهذه التشريعات ؟ أليس لها ما للرجل تماما ؟

وهكذا أصبحنا فى حال لا يقرها نظام ، ولا يعترف بها دين !

ولا يبعد أن يتدخل مدمنوا الخمر فى تشريع الخمر ! ومرتكبوا الزنا فى تشريع الزنا ! والسراق فى تشريع السرقة !

فى حين أن الدين لا يجوز أن يستنبطه عاطل منه ، والقرآن لا يصح أن يفسره جاهل به !

إن من سن السنن ، وشرع الشرائع ، وقنن القوانين ، ومن هو أدرى بالخلق من الخلق : قد أباح التعدد ، فهل بعد هذا يجوز لرجل — يؤمن بالله واليوم الآخر — أن يعترض هذه المزايا . ويسفه تلك النظم : بدعوته لعدم التعدد ؟

هذا وقد ثار قوم على هذا النظام الدقيق ، ودعوا إلى نبذه ، وشوهوا جماله ، وغضوا من حكمته ؛ داعين إلى وجوب الاقتصار على واحدة ، وزعموا أن قوله تعالى « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وقوله عز من قائل « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » قيد فى عدم التعدد .

وفاتهم أن قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم » هو أمر يدل على إباحة التعدد وانشائه وقوله جل شأنه « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » تنظيم لتعدد واقع فعلا ؛ بدليل قوله عز من قائل « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

وشتان بين ما سيقت الآية من أجله ، وبين ما فهمه فيها المعارضون !

ومنطق المعارضين المعاندين : منطق غريب ؛ لا يستقيم مع نظم الكتاب العزيز الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد جاءت السنة المطهرة بالتعدد ؛ يدل على ذلك قصة غيلان الثقفى ، وما سار عليه المسلمون فى العصر الأول ؛ بل فى شتى العصور .

وقد تصدى لهذا الموضوع الخطير بعض العلماء — أقول بعضهم ولا أقول كلهم — لأن فيهم الثقاة الثقاة ؛ ومنهم حملة الشريعة ، وهداة الأمة !

وقد قال هذا البعض قولا خالف فيه القرآن والدين ، وما أجمع عليه أئمة المسلمين ، ومنهم من قارب المخالفة !

فعلى رسلكم أيها القائلون ؛ فالله عليم بما تقولون وما تفعلون ، وما تظهرون وما تبطنون !

فلدينا الكتاب الكريم ؛ الذى يجب علينا أن نستقرئه ونستوضحه إذا حزبنا أمر ، أو أعوزنا دليل . ومن تبع هدى القرآن : فلن يضل أبداً ولن يشقى !

هذا وأول من جهر بهذا الرأى الفاسد : المرحوم وحيد الدين الأيوبى[1] وكتب عنه بالجرائد السيارة ، وقد أعاننى الله تعالى بالرد عليه فى الجرائد التى نشر بها رأيه فى حينه ، ونظمت قصيدة فى أحد ردودى عليه نشرت فى عام ١٩٢٠ ميلادية أذكر منها :

أنا يا وحيد أراك أكبر كاتب ... قد أتقن التفريع والتأصيلا
وأراك أول باحث تعنو له ... كل القرائح ؛ إذ يقيم دليلا
إن الكتاب أباح أربع نسوة[2] ... إلا لخائف جوره فيميلا[3]
والجور غير محقق فى كل من ... عرفوا النبى[4] وصدقوا التنزيلا
ماذا عرفت من الحديث ، وما الذى ... أدركت حتى تحسن التأويلا ؟
بالله قل - فالمرء يعرف نفسه - ... وامنح ذوى الحاجات منك السولا :
هل أنت مجتهد ؟ أم انت مقلد ؟ ... أم لا ولا بل قد بعثت رسولا ؟
أم أنت بالبعض الموافق مؤمن ... وترد ما أمسى عليك ثقيلا ؟
أم أنت تنصر فرقة ؟ أم صاحبا ... للشرع قد عادى وضل سبيلا ؟
مهلا ولا تمرح ؛ فلست بخارق ... أرضاً ، ولن تصل الشوامخ طولا[5]
لما اكتسى غيلان سربال الهدى ... وأتم عشراً حين كان جهولا
قال النبى له : لتمسك أربعا ... ودع البواقى ؛ فافهم التمثيلا
ما إن رأينا فى البرية مسلما ... يدع القران وينصر الإنجيلا !

---

١ — وقد كان — رحمه الله تعالى — من أنصار اللغة العربية ومحققيها .

٢ — قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

٣ — قوله تعالى « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

٤ — عرفوه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتخلقوا بأخلاقه الكريمة ، وتمسكوا بهديه !

٥ — فى هذا البيت تضمين لقوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

وقد أفحمته الحجة ، وألجمه الدليل ؛ فرد رداً مبتسراً : يستر به موقفه من معانى القرآن الجليلة الجميلة ؛ قال غفر الله تعالى زلته :

ما ادعينا وما مرحنا ؛ كما عدا علينا به كاتب فى لمز سامحه الله .

وترك الجدل والجدال فى أمر لا يسلكه إلا من أنار الله تعالى بصيرته ، وأنقى سريرته .

وقد سار على هذا المعنى كثير من المفكرين والكتاب ؛ سائرين وراء رغبة جامحة فى نفوسهم ؛ ضاربين صفحا عما يريده الله تعالى من نظام كونى دقيق ، وما تحويه آياته البينات من معان سامية !

هذا وقد ذهب الأستاذ الكبير : المرحوم عبد العزيز فهمى « باشا » إلى أن قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » قولا تهكمياً ؛ لا يراد به الإباحة . وأن معنى قوله جل شأنه « مثنى وثلاث ورباع » إلى ما لا نهاية له من العدد ؛ من غير تحديد بأربع ، وردد فى هذا المعنى وأطال .

ورغم سعة علمه — رحمة الله تعالى عليه — وتقديرى لفنه الذى انقطع له فبالغ فى إتقانه ؛ فإنى أقول : إن قوله هذا غير جدير بالرد ؛ إذا ما ضممنا إلى الآية : ما ورد عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وما سارت عليه صحابته رضوان الله تعالى عليهم .

فإن الخالق تعالى حين يقول « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » لا يجوز لمخلوق أن يقول ؛ إن هذا على سبيل التهكم ، وإن هذا العدد لا نهاية له يوقف عندها . خصوصاً إذا ضممنا إلى ذلك : العمل الذى سار عليه السلف الصالح ، فى أزهى عصور الإسلام : فلم يعترض معترض ، ولم ينتقد منتقد .

وليس لكائن من كان أن يقول : لا . إن هذا نظام بال عتيق ؛ لا يتفق مع ما نحن عليه من تقدم وحضارة .

والذى يدرس نظام التعدد — على ضوء ما قدمناه ؛ بما جاء به القرآن الكريم والدين الحنيف — يجده من أدق النظم الاجتماعية وأرقاها ، وأوفاها بحاجة المجتمع ؛ أياً كان جنسه ولونه ودينه .

وإذا قلنا بما يقوله بعضهم : من وجوب توفر الميسرة عند طالب التعدد ؛ فلم لا نقول بوجوبها أيضاً عند طالب الزواج الأول ؟

وذلك لأننا إذا حرمنا من الزواج من لا يستطيع أن يقوم بأود اثنتين : وجب علينا

أن نحرم من الزواج أصلا من لا يستطيع أن يقوم بأود واحدة . وهذا ما لا يقره عرف أو شرع أو دين !

ذلك لأن تقدير اليسر وعدمه : متروك لأهل العروس ؛ فهم وحدهم الذين يقدرون مدى استطاعة الزوج الإنفاق على ابنتهم .

والذين يتكلمون فى التعدد : ينظرون إليه من زاوية بعيدة كل البعد عن واقعية موضوعه ، ويصورونه فى أنفسهم : كأن طالب التعدد قد اختطف فتاة من أهلها ، وكانت محاطة بالطالبين والراغبين !

وفاتهم أن التى تقبل الزواج من متزوج : قد فاتها طلاب الزواج من الموحدين ، أو لم يتقدم لها الكفء ؛ وأصبحت عبئاً ثقيلا على نفسها وعلى ذويها ؛ فكم من زوج عدد زوجاته ، وكان خيراً ممن اقتصر على واحدة ؛ فجعل حياتها جحيما ، وأبدل صفاءها شقاء ، وأمنها خوفاً ، وودها بغضا ، ورحمتها عذابا !

وما يدرينا : لعل عائل الفتاة نفسه لا يستطيع أن يطعمها أو يكسوها ؛ وينادى ربه صباح مساء أن يرزقه بمن يحمل عنه هذا العبء الثقيل !

وقد جاء فى الأثر : أن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه قد أباح التعدد مع الفقر ، وجعله سببا من أسباب اليسر . ولعل فى ذلك حكمة لا نعلمها !

وأكثر من هذا : فإن محمداً عليه الصلاة والسلام قد مات ولم يشبع أهله من خبز الشعير : وعنده من عنده من الزوجات . فلم يكن ذلك منقصة فى حقه ، أو مذمة عرض نفسه فى الوقوع فيها !

وهل من الدين فى شىء ، أو من الحكمة فى شىء : أن تظل بناتنا فواجر ؛ بدون إحصان ، ونساؤنا عوانس بغير تزويج ؛ فى سبيل تقليد الأمم الأخرى غير المسلمة ؛ التى تقول بعدم التعدد ؟

ومن العجيب أن يقوم أناس من بيننا ، ومن أبناء جلدتنا وديننا : فيدعون إلى عكس ما يدعو إليه الدين ، بل بما تدعو إليه المسيحية والنصرانية الحائرة !

ما إن رأينا فى البرية مسلما   يدع القران وينصر الإنجيلا !

ويسىء إلى الإسلام أشد الإساءة ، ويستوجب المقت كل المقت : من يتلاعب بألفاظ القرآن الكريم ؛ لنصرة مبدإ سقيم ، ورأى تافه عقيم !

(انظر قرار المؤتمر الإسلامى فى ختام مبحث تحديد النسل)

أزواج الرسول

عليه الصلاة والسلام

هذا وقد طعن كثير من سفلة البشر ، ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير ، فى محمد عليه الصلاة والسلام : واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه عليها ، ومنقصة يلصقونها به . وقالوا : إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

فى حين أن زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم : يسمو بإنسانيته إلى الحد الذى لا يجاريه فيها إنسان ، ولا يباريه فيها بشر !

فلو أراد أن يضم فى بيته كرائم العقائل ، ونفائس الخرائد : لكان له ما يريد من أسمى بيوت العرب ، وأجمل الجوارى : من بنات فارس والروم ؛ اللاتى يرفلن فى حلل الدمقس ، ويتحلين بأفخر الجواهر ؛ ولكان سماطه كسماط قيصر وكسرى !

كيف لا : وقد كانت تحمل إليه الأموال حتى يضيق بها مسجده ؛ فلا يقوم وفى كفه منها شىء !

وما شبع هو وآله من خبز الشعير ؛ وحاله من الغنى والجاه : ما قدمنا وما وصفنا !

ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتهلات : التى مات عنها زوجها ؛ فلم تجد مأوى ، والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج !

ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة : هى عائشة ابنة رفيقه وصديقه أبى بكر الصديق « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » .

ولو أردنا أن نصف ما لاقين فى كنفه من القلة وشظف العيش ؛ لما وسعنا هذا المؤلف !

وعند ما بلغت قسوة الحياة منتهاها ، وجاوزت الشدة مداها : نزلت آية التخيير .

« يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما »

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق إلى حسن الاختيار ؛ واخترن دار القرار ؛ وقلن جميعاً : بل نريد الله ورسوله !

فتمت لهن بذلك السعادة ، واستوجبوا الحسنى وزيادة !

وقد تزوج — عليه أفضل الصلاة وأتم السلام — بالسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ولها أربعون سنة ، وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزواجها سوى أنها خطبته لنفسها بنفسها ، وكانت من أعف النساء ، وأعرقهن حسباً ونسباً ! ولها — بعد ذلك — فضل السابقية فى الإسلام ؛ فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة . وماتت وسنها خمس وستون سنة ؛ وكانت مدة مقامها معه صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله تعالى عنها : وفاء المتعة والحس ؛ بل وفاء الروح والنفس : فلقد فضلها — بعد ذلك — على عائشة ؛ وهى أصغر زوجاته وأحبهن إليه !

فترى من هذا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قضى عنفوان شبابه ، وزهرة حياته مع خديجة ؛ ولم يتزوج غيرها ؛ وإنما تزوجها لخلقها ، ومعاونتها له ، ومناصرتها إياه .

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !
انظر خديجة رضى الله تعالى عنها فى آخر هذا المبحث .

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة رضى الله تعالى عنها . وكانت تحت السكران ابن عمرو ؛ وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ومات حين قدما مكة . ولو عادت إلى أهلها — بعد موت زوجها — لعذبوها وفتنوها فى دينها ؛ فكفلها صلى الله عليه وسلم . وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ؛ وكانت مسنة ، ولم يكن معه غيرها . ومكث معها خمس سنين ؛ إلى أن تزوج السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها فى السنة الأولى من الهجرة . وهى التى وهبت يومها لعائشة : لما رأته من حبه لها ، وميله إليها .

فترى من هذا أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها ؛ حريصا على إيمانه ، فاراً بعقيدته ؛ وتألفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته صلى الله عليه وسلم .

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما . وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق الذى كان معه « ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » ولم يتزوج بكراً غيرها .

وإذا علمت أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة : علمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما . وقد كانت رضى الله تعالى عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية ؛ خصوصا ما يتعلق منها بالنساء !

قيل : لم ينزل عليه الوحى فى لحاف امرأة غيرها ، وهى أفقه نساء الأمة جميعا وأعلمهن : لذا قال عليه الصلاة والسلام : « خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء » . ولو أن بعض المحدثين تكلم فى صحة هذا الحديث ؛ غير أنه لم يجرؤ أحد من المسلمين أن ينكر معناه ومبناه .

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما . وكانت تحت خنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر .

وتزوجها صلى الله تعالى عليه وسلم مكافأة لها وحباً فى أبيها — الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف — ورغبة فى إيوائها ، وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه !

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة : وكانت تحت عبدالله بن جحش رضى الله تعالى عنهما ؛ فقتل عنها يوم أحد . فتزوجها صلى الله عليه وسلم إيواء لها ، وجبراً لمصابها فى زوجها ، وحفظاً لدينها ؛ وقد توفيت بعد ضمه لها بشهرين .

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة أم سلمة : هند بنت أبى أمية . وكانت تحت ابن عمها عبد الله بن عبد الأسد . وكانا أسلما قديما وهاجرا إلى الحبشة ، ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة . فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد . فتزوجها صلى الله تعالى عليه وسلم .

قيل : كانت رضى الله تعالى عنها آخر نسائه موتا . وقيل : آخرهن صفية .

ويروى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من مسلم تصيبه

مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيراً منها : إلا أخلفه الله خيراً منها ، فلما مات أبو سلمة : تذكرت قول الرسول عليه السلام . وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟ رجل نال الصحبة ، وشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ! ؟ ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسوله عليه الصلاة والسلام ، فآواها ، وحفظها ، وأكرمها !

فترى من هذا أنه صلى الله عليه وسلم تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته ؛ وكانت كثيرة الأولاد فآواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها ؛ جزاء لها على هجرتها ، وإيمانها ، وثباتها ووفائها ! فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش — وهى ابنة عمته — وكان قد زوجها لمولاه زيد ابن حارثة : ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ؛ ويجعله أهلا لمصاهرة بنى هاشم ؛ مصداقا لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد طلاقها من زيد بوحى من الله تعالى للتشريع « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم » .

وكانت تقول لنساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات !

وقد زعم الزاعمون فى هذه القصة ما زعموا ، واتخذها اليهود سلاحا يحطون به من قدر سيد بنى آدم ولا فخر . ومن أعجب العجب أن يوافقهم على ذلك بعض من ينتسب للإسلام ، وملأوا بهذا الزيف المكفر كتب التفسير .

(انظر آية ٣٧ من سورة الأحزاب . فى تأويلها الشفاء والكفاء)

وقد كان زواجه بها : إعفاء لها من إهمال يصيبها ، بعد طلاق يذلها ؛ فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ؛ فما بالك بمطلقات الأرقاء !

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ !

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحرث ، وكانت تحت مسافع بن صفوان المصطلق ، وقد قتل كافراً يوم المريسيع ، وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق ، وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم ؛ فأعتقها صلى الله عليه وسلم وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك : أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، وقالوا : هم أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فأسلم بسببها بنو المصطلق ، عن بكرة أبيهم ، وحسن إسلامهم !

فنرى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها . وقد أنقذها من الأسر ، وأعتقها من الرق ، وأعزها من الذل !

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة أم حبيبة : رملة بنت أبى سفيان ، وقيل اسمها هند وكانت تحت عبيد الله بن جحش ، وقد هاجرا إلى الحبشة : الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ، ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه ، وخالفته ، واختارت الإسلام عليه ؛ فأتم الله تعالى لها : الإسلام ، والهجرة ، والصحبة ، وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم !

ويروى أن أباها — أبا سفيان — قدم المدينة فدخل عليها ، فلما ذهب ليجلس على الفراش : طوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى ، أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت امرؤ نجس ! فقال : لقد أصابك بعدى شر ! فقالت : بل خير ! وقد خطبها صلى الله تعالى عليه وسلم من ملك الحبشة ؛ حين سمع بانقطاعها ، وفقد نصرائها . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب : سيد بنى النضير . قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت تحت إسلام بن مشكم القرظى ؛ ثم فارقها : فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر ، وأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى : فخيرت بين العودة إلى قومها ، وزواجها بالرسول : فاختارت الخيرة ! فأعتقها صلى الله تعالى عليه وسلم وتزوجها : رغبة فى إسلام قومها « اليهود » وقد أسلم كثير منهم . فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

وتزوج بالسيدة ميمونه بنت الحرث الهلالية بعد وفاة زوجها ، وهى آخر من تزوج . وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها إيواء لها ، وتألفاً لقومها : وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها ، منهم — ابن أختها — سيف الإسلام خالد بن الوليد . الذى كان حرباً عواناً على الإسلام ؛ فأصبح حرباً ضروساً على أعداء الإسلام !

فقل لى بربك : أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

ولا خلاف فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم توفى عن تسع نسوة .

وفى ذلك يقول الشاعر :

توفى رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ، ميمونة ، وصـــفية وحفصة ؛ يتلوهن هند ، وزينب
جويرية ، مع رملة ، ثم سودة ثلاث وست : ذكرهن مهذب

ويتضح مما تقدم أن الرسـول عليه الصلاة والسلام لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ، ومقاصد أخروية ؛ لا تمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة !

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم : وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ؛ والتى لا يستطيع تبليغها الرجال : كالطهارة ، والغسل ، والحيض ، والنفاس ، والولادة ، والرضاع : إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء — على وجهها الأكمل — سوى النساء !

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين — على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين — امرأة واحدة ، بل عدة نساء ، من عدة قبائل . وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره ، وبسط شرائعه !

وقد ثبت أنهن أذعن عنه صلى الله تعالى عليه وسلم : علماً ، وفضلا ، وفقهاً !

ولو كان صلى الله عليه وسلم يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء — من التمتع واللذة ليس غير — لانتخب الحسان الأبكار ، والكواعب الأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات !

فهل بعد هذا لمبشر — غر ، سمج ، عتل ، زنيم — أن يقول عنه صلى الله عليه وسلم : إنه شهوانى يميل إلى النساء ؟ !

فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؛ فسبحان من هدانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون !

وفضلا عن ذلك : فلم تكن علاقاته — عليه أفضل الصلاة وأتم السلام — بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، بأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ؛ فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ؛ بل الكلمة الرقيقة ! ولم تبد على سماته النظرة القاسية ؛ بل النظرة الحانية !

وما من رجل — بالغ ما بلغ من المروءة والرقة وسعة الصدر — إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضجر إزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ، ونذر السوء حيال عمل ما !

ولكن الرسول ، الذى أوتى جماع الفضائل ، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق !

الرسول الذى أرسل من البشر ، ليعلى من أقدار البشر ، ويرفع من شأنهم ، ويسمو بنزعهم : لم يكن كذلك !

ولم يكن هذا منه — عليه الصلاة والسلام — جبناً ، أو ضعفاً ؛ بل كان كمالا وجلالا !

فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ؛ وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أجل صورها ، وأرفع مراتبها !

فإن من يقهر نفسه باختياره ؛ ليترفق بضعيف ؛ لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق : لهو الشجاع الباسل القوى القريب من الله !

بقى شىء واحد — وهو من الخطورة بمكان — وهو أن بعضهم يروى عن الطاهر المطهر صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حبب إلىّ من دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

وقال أيضاً : « أعطيت قوة أربعين فى البطش والجماع » .

وهذا كما ترى مرذول ممجوج ؛ لا يصح بحال نسبته لسيد النبيين . وإمام المتقين !

ولو رويت هذه الأحاديث فى سائر الصحاح — ولن تروى — وأسندت فى كل المسانيد — ولن تسند — لما وسعنا إلا رفضها ، والجزم ببطلانها !

يقول الله تعالى — فى معرض الذم والقدح — « زين للناس حب الشهوات من النساء » ونحن ننسب للرسول عليه الصلاة والسلام القول بحب النساء ؛ وأنه أعطى قوة أربعين فى إتيانهن !

وهل بعد هذا نلوم المبشرين فى طعنهم على الرسول صلوات الله وسلامه عليه — بأنه شهوانى يميل إلى النساء — ونحن الذين نسلمهم بأيدينا الحجج ، ونقيم لهم بأنفسنا البراهين ؛ على صحة زعمهم ، وصدق إفكهم ! بل وننسب للرسول ونفترى عليه ما لم يقله ، وما هو مبرأ من أن يهجس به ؛ فضلا عن أن يفخر بذكره ، ويقوله على ملإ من أصحابه ؛ الذين يرون فيه المثل الأعلى للأخلاق الفاضلة ، والخلال الكاملة !

الرسول الطاهر المطهر ، يجلس بين صحابته ويقول : « إنى أحب النساء ، وإنى أعطيت قوة أربعين فى الجماع ؟ ! »

يا لها من فرية يضطرب لها القلب ، ويتصدع منها الحق ! فاحذرها — أيها المنصف الحكيم — وأذع بطلانها بين من تعرف ؛ هدانى الله وإياك لما فيه الرشاد والسداد !

وقد روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم[١] ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم[٢] ؛ وترون أنه منكم قريب[٣] ؛ فأنا أولاكم به . وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترونه بعيداً عنكم ! فأنا أبعدكم منه » .

فمن هذا يعلم أن ما تقدم من الأحاديث وأمثالها ؛ لا يجب الأخذ بها ، ولا التعويل عليها : لمخالفتها للكتاب والسنة ، بل وللآداب العامة أيضاً !

---

(١) تعرفه قلوبكم : أى تطمئن إليه ، ولا تنكر معناه ، ولا تستوحش من نسبته إلىّ .

(٢) الأبشار : جمع بشرة ؛ وهى ظاهر جلد الإنسان .

(٣) قريب : أى لأفهامكم وأذواقكم وآدابكم .

أم المؤمنين خديجة

رضى الله تعالى عنها

لقد تزوج الرسول الكريم — صلوات الله تعالى وسلامه عليه — بخديجة رضى الله تعالى عنها ؛ وهى تكبره بخمسة عشر عاما ، ومكثت معه خمسة وعشرين عاماً ؛ حتى لحقت بربها : مزودة بدعائه لها ، وحزنه عليها ، وأسفه على فقدها !

وقد بلغت معه سن الشيخوخة ؛ فلم ينقص ذلك من جمالها الذى طبع فى قلبه الشريف ، وأشربت به نفسه الكريمة !

فالجمال — فى الحقيقة — جمال الروح والنفس ؛ لا جمال الصورة والحس !

فكم من امرأة بالغة الجمال : عدا عليها سوء الخلال ؛ فقبحت منظراً ومخبراً !

وكم من غيداء وحسناء : تميس بقدها دلالا واختيالا : تبدو لزوجها : أقبح من القبح ، وأبشع من البشاعة ! لما يفلته لسانها من سوء !

لكن خديجة — رضوان الله تعالى عنها — وقد جعلها مولاها نموذجاً للزوجة الفاضلة الكاملة ، وأضفى عليها من كريم الخصال ، وروائع الخلال : ما سما بها فوق كل سمو ، وعلا بها فوق كل علو !

فقد ظل — صلوات الله تعالى وسلامه عليه — حافظاً لعهدها وودها ، مقدراً لها قدرها !

فلم تحدثه نفسه الكريمة بالتزوج عليها ؛ مع قدرته عليه ، ويسر له .

وما كان ذلك إلا لسبب واحد ، أبرزه التاريخ وأوضح معالمه :

فلم تكن خديجة زوجاً له فحسب ؛ بل كانت له أماً ، وعوناً ، وعضداً ، وسنداً !

كانت تعلم حقيقته حق العلم : فآوته ، ونصرته ، وأكبرت جهده . وأيدت دعوته ؛ ولم تشغلها المشاغل عن القيام بواجبها حياله !

لقد كانت تشعره دائماً بالحب مع الرضا ؛ وأنه ملء قلبها وعينها ، وأنه المثل الأعلى فى كل ما يفعل ، وكل ما يدع !

وكان يكذبه الناس : فتصدقه هي ، ويبالغون في تسفيهه ؛ فتبالغ في إكرامه !

وكلما ازداد عنت المتعنتين ، وتكبر المتكبرين : ازدادت براً به ، وحنواً عليه ، وحباً ، وتقديراً له !

وبقدر ما بالغت في إكرامه : بالغ المولى سبحانه في إكرامها : حتى بلغ من علو قدرها ، وسمو فضلها : أن نزل جبريل عليه السلام ؛ قائلا : « يامحمد : أقرىء خديجة من ربها السلام » فأى فضل هذا ؟ وأى تكريم اختص بها المولى سبحانه خديجة : الزوج الكريمة ، للرسول الكريم : التي عاشت معه طوال حياتها : فلم تخدش سمعه ، ولا بصره ، ولا فكره : بأى شيء — مهما صغر — ولم تخالفه في أمر من الأمور — مهما هانت تلك المخالفة — بل كانت تبادر لما يريد ؛ من غير قول ، وإلى ما يرغب ؛ من غير إشارة !

فكانت الطائعة ، الموافقة ؛ التي لا يهمها إلا ما يهمه ، ولا يشغلها إلا ما يشغله ، ولا يسرها إلا ما يسره !

ترى مباهج الحياة ومسراتها : في إرضائه ؛ لا في إرضاء نفسها !

كل هذا : جعل من خديجة رضى الله تعالى عنها : خير زوجة عرفها التاريخ ؛ السابق واللاحق !

واجب كل زوجة :

وهذا الذى فعلته خديجة هو في الواقع : واجب كل زوجة مسلمة ؛ ترغب في رضا زوجها ، ومرضات ربها ! وترغب أن تحيا حياة سعيدة في الدنيا والآخرة .

متى يمتنع التعدد :

بعد ذلك : كان لزاماً على الزوج الذى وهبه الله تعالى مثل هذه الزوجة : أن يجتنب التعدد — وهو الذى أحله الله تعالى — وإلا كان كافراً بنعمة الحب ، مستهيناً بأنعم الله تعالى عليه !

ومن أجل ذلك : منع الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه — تشريعاً لامته — زواج على كرم الله وجهه على فاطمة الزهراء : خير النساء ، وابنة خير النساء ، وبضعة خير الخلق أجمعين !

متى يجوز التعدد :

أما لو انشغلت الزوجة عن زوجها بمتاع الدنيا الزائل ، وزخرفها الباطل ؛ وبشديد

الغيرة عليه : كان عليها أن تستقبل فى حياتها ما يشقيها ويتعسها ؛ فى حدود ما رسمه الإسلام : من نظام لا يتطرق الشك إلى مزيد حكمته ، وعظيم نفعه : وهو التعدد .

والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام — بعد موت خديجة ، وبعد هجرته إلى المدينة — تزوج عديداً من فضليات المسلمات : لم تبلغ إحداهن خديجة : فى طباعها معه ، وحبها له ، واستكانتها لأوامره ، وسبقها إلى طاعته : فيما طلب ، وما لم يطلب !

تزوجهن جميعاً : لا لجمال ، ولا لمال ، ولا لجاه ؛ وإنما لأسباب كلها إنسانية واجتماعية ، وبوحى من ربه ، وإلهام منه .

ولم يكن التعدد منه بطراً ، أو سعة فى المال — كما يفعل الكثير اليوم — فقد روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، أنها قالت : « كان يمر علينا الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ؛ ثلاثة أهلة فى شهرين ؛ وما يوقد فى أبيات رسول الله نار للطعام »

كما روى أيضاً « لقد مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ ولم يشبع أهله من خبز الشعير »

كل هذا حصل فى بيوت الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ وهو خير أهل الأرض والسماء !

ولاقى نساؤه الكريمات : شظف العيش ، وهن خير من أنجبت حواء !

كل هذا : والمال موفور لديه ، والفىء يملأ مسجده الشريف ؛ حتى ليضيق به ؛ فلا يقوم من مكانه حتى يوزعه جميعاً ؛ ولا يبقى لنفسه منه : إلا ما يسد الرمق ، ويبقى الحياة !

وكان قوام حياتهن جميعاً — على ما فيها من ضيق — طاعة الزوج ، وعبادة الله ، حتى لقين الله تعالى ؛ وهو عنهن راض ، ولهن مكرم !

الطلاق

يقول الله تعالى ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ وقد أراد قوم — غفر الله تعالى لهم — أن يقيدوا الطلاق ، ويجعلوه بيد الحاكم لا بيد الرجل ؛ وهم بهذه القالة يتركون الإسلام ؛ ذلك الدين الكريم السمح ، ويعودون بنا إلى المسيحية التى تلزم الرجل بإمساك زوجته : كارهاً لها ، مبغضاً لعشرتها ، مبتغياً هلاكها للخلاص منها !

ومن عجب أن الشرائع التى أخذت بنظام منع الطلاق : تلاقى من ذلك ضيقاً وأى ضيق ؛ وعنتاً وأى عنت ؛ ولا يجد متبعو هذه الشرائع متنفساً لما هم فيه ؛ سوى الهم والكبت . فيظل الزوج يمسك زوجه العاهرة على هون ! وتظل الزوجة فى كنف زوجها الفاجر الباغى على أذى !

فكم من مآس تمس الأعراض والأنساب ، وكم من جرائم تهدم الأخلاق والمقدسات ، وكم من فساد يفشو ، وكرامات تهدر !

فقد يحصل بين الزوجين ما يسمونه فراقاً جسمانياً ؛ وهو أمر تقره الديانات المسيحية وحدها !

وقد قصدت هذه الديانات بذلك : تأديب الزوجة بالهجران لأمد قصير . ولكنه قد يطول حتى ينهى حياة أحد الزوجين ، أو كليهما !

وقد شرعت الديانة الإسلامية ذلك التأديب أيضاً : « واهجروهن فى المضاجع » وهذا الهجر : يعتبر أوسط التأديب — بين الوعظ ، والضرب — ولكن الهجر فى الإسلام : لما كان يستتبعه الضرب ، فالطلاق ، فالتزوج بأخرى : كان تأديباً نافعاً ناجعاً !

أما فى الديانات المسيحية ؛ فلا يعقبه شىء ما ؛ اللهم إلا أن يضرب الزوج رأسه بالحائط ، أو يشرب ماء المحيط إن شاء ! فلا هو بمستطيع تسريحها والزواج من غيرها ، ولا هى بمستطيعة التخلص منه ، والتزوج من غيره !

فيلح عليهما داعى الجسد ؛ الذى أودعه الله تعالى فى كليهما — بل فى كل كائن حى — وحينئذ يدأب الزوجان على التحلل من ذلك الضيق بأبسط الحلول الحيوانية : فليتخذ الزوج خليلة مكان الحليلة ؛ ولتتخذ الزوجة خليلا مكان الحليل !

وينصبغ هذا الإجراء منهما بصبغة شبه رسمية ، هى بالحلال والمباح أشبه !

فيصطحب الزوج عشيقته فى المجتمعات والمنتديات ، والحفلات الرسمية ، وغير الرسمية ، وتصطحب الزوجة عشيقها أيضاً فى مثل هذه الحفلات !

وقد يلتقى الإثنان — أو الغريمان — فلا يقابل أحدهما الآخر إلا بالتحية ، والمودة ، والابتسام ؛ وقد تنتج من هذه العلائق الآثمة ذرية وأبناء ؛ فلا يضيق هذا المجتمع الراقى بهم ؛ بل تعترف بها قوانين القوم ، بغير ما تثريب أو لوم !

وهكذا تنقلب العلائق التى ربطها الله تعالى برباط محكم وثيق : من الود والرحمة والروحانية ؛ إلى علائق آثمة : تعافها أحقر الحيوانات !

وتصبح هذه العلاقات — التى لا تقوم على أى أساس من الدين ، أو الآداب العامة — وقد أقرها المجتمع ؛ لأنه يرى فيها أنها نتيجة حتمية ؛ لعلاج حالة اجتماعية !

هذا وقد سجلت المحاكم الأجنبية فضائح يندى لها الجبين خجلا ، وتتأذى منها الأسماع والأبصار ، وهى تجل عن الحصر :

فمن ذلك : أن رفع أحد الأزواج قضية طلاق ضد زوجته التى خانته مع زوجها السابق ، مطلقها ، خيانة زوجية تستوجب فى شريعتنا الحنيفية السمحة : الرجم بصغار الأحجار ، حتى تنقطع الأعمار !

وقد اعترفت الزوجة أمام القضاء بتلك الخيانة ؛ غير أن محاميها دفع التهمة عنها بأن الكنيسة لا تعترف بالطلاق الأول ، وبالتالى فإنها لا تعترف بزواجها الحالى ؛ وبذلك تكون الجريمة قد وقعت فى ظل سماحة الدين الذى يحرم زواجها من زوجها الحالى ؛ وبذلك يكون المجرم هو الزوج — المجنى عليه — والبرىء هو الجانى بل الزانى !

فلم يسع المحكمة إلا الحكم بالبراءة ؛ ولعل الزانى الآن قد رفع دعوى مدنية ضد الزوج يطالبه فيها بتعويض عما ناله من أذى فى سمعته الأدبية ، ومكانته الاجتماعية[1] !

وهكذا سامت أخلاق الأمم غير المسلمة ، وانهارت مقوماتها ، وامحت مثلها العليا ، وانطمست فضائلها ! ولم يجدهم علمهم الضخم ، وأدبهم الجم ، ومنظرهم الفخم ! ولم ينفعهم ما هم فيه من عيش رغيد ، ونعيم أكيد ! بل صاروا بهذه الأخلاق كالرمم البالية ، والذئاب العاوية !

---

(١) نشر هذا الخبر بجريدة الجمهورية ، عدد ١٩ فبراير سنة ١٩٥٧ (العدد ١١٥٦) .

ولم يغنهم سكنى الدور والقصور ، ولبس الملابس الزاهية ، وركوب المراكب الفارهة[1] !

وأصبح الأعرابى : العارى الجسم ، الحافى القدم ، وليد الصحراء ، قاطن الكوخ . أصبح يزهو بأخلاقه ، ويتيه بغيرته ، ويستمسك بحميته ، ويعجب بزوجته : التى حفظته فى حضوره وغيبته ! وهو إن أحبها : أمسكها وأكرمها ، وإن كرهها : طلقها ولم يظلمها !

ونظام الطلاق فى الإسلام : هو الواحة التى يستظل بها كل من لفحته سموم الشحناء ، وأحرقه يحموم البغضاء ! فمالنا به وبتقييده ! ؟

وكيف يمسك إنسان إنسانة وهو لها كاره ، ولعيشها قالٍ ؟

ولم لا يسرحها ؛ فتتزوج بمن يحبها وتحبه ، ويحرص على راحتها وتحرص على راحته ؟ ألم يقل خالق الإنسان للإنسان « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

والطلاق ضرورة اجتماعية : ينادى بها كل من له قلب يفقه به !

فتعالى الله الذى جعل لعباده من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ؛ وأعد لخلقه — وهو أدرى بهم من أنفسهم — ما يصلح دنياهم وآخرتهم !

وإلا فخبرونى بربكم : كيف يكون الحال والمآل ؛ إذا قال الحاكم للزوج : أمسك عليك زوجك . وقال الزوج : لا ، لا . هى طالق ، هى طالق ، هى طالق ! فهل تبين منه كما يقول الله تعالى « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » أم يمسكها على هون رغماً عنه ؛ كما أمره الحاكم ؟ !

وقد قال تعالى — بعد ذكر الطلاق — « وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون . . . ولا تتخذوا آيات الله هزواً » .

وكيف نعطى القاضى حقاً : منحه الله تعالى للزوج وحده دون غيره ؛ فقد سمى الزوج « الذى بيده عقدة النكاح » فكيف يعطى الحاكم عقدة النكاح ؛ بعد سلبها ممن أعطاها الله تعالى له فى محكم كتابه ، وصريح آياته ؟ !

وقد شرع الله تعالى الطلاق لحكمة عالية ، وأغراض سامية ، ومقاصد شريفة : لأنه متنفس الزوجين ؛ إذا ساءت العشرة ، ودامت المضارة ، وتكدر صفو الحياة ، وانقطعت الألفة ، ورثت حبال المودة ، ودب البغض فى قلب كليهما ، واشتد الجدال ، واحتدم الخصام ، وهبت أعاصير الشقاق ، وطلب الوفاق فلا وفاق !

---

(١) الفاره من الدواب : الحسن المنظر ، الجيد السير .

وما المخلص للزوجين : إذا كانت طباعهما متنافرة ، وميولهما متباينة ، أو كان أحدهما فاسد الخلق ، لئيم الطبع ، سيء العشرة ، بذيء اللسان ! ؟

أليس الطلاق : هو الداء الناجع لتلك الآلام ، الشافى من هذه الأسقام ؟

ولولاه لعم الفساد ، واختل الأمن ، واغتيلت الأرواح ، وفشا الانتحار ، وهجرت الأوطان ، وذاع الفسق والفجور !

وقد جاء عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وجاء عن عمر رضى الله تعالى عنه ؛ أنه قال لرجل طلق امرأته : لم طلقتها ؟ قال : لا أحبها . فقال : أكل البيوت بنيت على الحب ؟ أين الرعاية والذمم ؟ !

وقد أوجب الإسلام على الزوج ملاينة زوجته ، وملاطفتها ، وموادعتها ، ومعاشرتها بالمعروف ، وأخذها بالحسنى : حتى تطيب نفسها ، ويطمئن قلبها !

كما دعاه أيضاً إلى الصبر على ما يكره منها ؛ وضمن له الخير الكثير ، والثواب العظيم ! قال تعالى : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

فمن اضطر بعد كل هذا إلى ولوج باب الطلاق : فليفعل غير آثم ، ولا باغ ؛ وليتبع حدود الله تعالى « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

ومن عجب : أن تقوم زمرة من مثقفى هذه الأمة فينعون على الطلاق ، بزعمهم أن سائر العقود : لا يصح أن تفسخ من طرف واحد ؛ دون إرادة الطرف الآخر . وهى كلمة حق أريد بها باطل !

إذ أن عقد الزواج انبنى على إرادة الزوجين للزواج ، وعلى أن يكون الزوج وحده بيده عقدة النكاح ، وأن له وحده حرية فسخ العقد .

وهذا كلام لا يقبل الجدل ، ولا يختلف فيه اثنان من ذوى العقول !

إن أوامر هذا الدين : لا تقبل تأويلا ولا تحسيناً ؛ فقد أكمل الله تعالى لنا ديننا ، وأتم نعمته علينا ، ورضى لنا الإسلام ديناً « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » فإما الطلاق كما عرفه الله تعالى فى دينه الذى ارتضى لنا ، ونظمه رسوله عليه الصلاة والسلام : وإما نصرانية صريحة يأباها الدين ؛ ولا يقرها المسلمون « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

« ينظر قرار المؤتمر الإسلامى فى ختام مبحث تحديد النسل »

تحديد النسل

أو تنظيمه

يقول الله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار » فهو وحده — جل شأنه — الذى يتولى زيادة المواليد ونقصانها ، وحاجة الكون لها ؛ وقد خلقه وأبدعه ، وأعد له ما يصلحه وينفعه ! « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » واختياره وإرادته ! فكم من أنثى لا تلد : مع توافر الأسباب ، والرغبة فى الإنجاب . وكم من أخرى تلد فوق ما ولدت ، وتنجب فوق ما أنجبت !

وقد تكون الأولى فى سعة ، والأخرى فى ضعة ؛ ولكنه تقدير الحكيم العليم : الذى يعلم ما لا نعلم ، ويرى ما لا نرى « وكل شيء عنده بمقدار » .

وإنه لمن الكفر الصراح : أن نعتقد أن الله تعالى الذى لا تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه . يتركهم — بعد وضعهم — وشأنهم للجوع والضياع « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » !

وقال جل شأنه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » وقال عز وجل : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

والدليل فى الآية الأولى : التخلص من الأولاد ؛ لفقر واقع فعلا « من إملاق » ، وفى الآية الثانية ؛ التخلص منهم ؛ لفقر لم يقع ، ولكنه متوقع « خشية إملاق » .

وفى الآيتين : نهى عن القتل — والقتل : ليس مما يدعو إليه القائلون بتحديد النسل — وقد رد كثير منهم على من يحتج بهاتين الآيتين .

ولكن غاب عنهم أن فيها نهى عن القتل ؛ مع إيراد السبب الدافع إليه .

والقتل فى ذاته : قد يكون مرغوباً فيه : إذا كان دفاعاً عن العرض أو النفس . فوجب أن ينظر إلى السبب الدافع إليه ؛ وهو خشية الإملاق .

ومن المعلوم أن خشية الإملاق — كما سنبين فى هذا المبحث — إنكار لقدرة الله تعالى ، وإظهاره جل شأنه بمظهر العجز عن كفاية ما خلق !

فى حين أن من بين عبيده من يتكفل بإطعام بعض مخلوقاته ، ويقوم بكفالته خير قيام .

وليس من المعقول أن يكون من بين مخلوقات الله تعالى : من هو أقدر من خالقه ، وأصدق منه وعداً !

وقد كانوا فى الجاهلية يقتلون أولادهم من الفقر ، أو خشية الفقر ؛ وهو كفر لا يعدله كفر ! وينطوى تحت جرم قتل الأولاد : جرم هو منه أقبح وأشنع ، وهو جرم الكفر بالله ، وعدم الثقة بوعده الحق ، وقوله الصدق !

وقد قام فى هذا الزمان أناس ينادون بتحديد النسل : بحجة عدم كفاية المواد الغذائية ، والمواد الأولية ؛ لحاجة سكان الكرة الأرضية ؛ الذين هم فى ازدياد مستمر .

ولما أعوزهم الدليل ، وضاق بهم السبيل ؛ قالوا : إنهم لا يعنون تحديد النسل — بمنطوقه ومفهومه — بل يعنون تنظيمه ؛ وغاب عنهم أن التنظيم الذى يريدونه ؛ هو التحديد الذى يعدلون عنه — بل وأشد منه قبحاً ومنكراً — وذلك لأن التنظيم — فى النسل بالذات — يقتضى سد الحاجة بالمنع أو الإعطاء ؛ فإذا ما افترضنا جدلا : حاجة الكون إلى التزايد ؛ فهل فى مكنة مخلوق أن يتحكم فى هذا النقص بالزيادة ؟ !

والإجابة على هذا السؤال لا تقتضى سوى النفى المطلق !

وهنا لا يكون أمامنا سوى التنظيم بالمنع والنقصان ! وهو التحديد الذى تهربوا منه !

فإذا ما تمشينا معهم فى تحديدهم أو تنظيمهم ، وقلنا : هلم نحدد أو ننظم ؛ وعندنا من الأولاد ما يكفينا ويرضينا . ولكنا قبل أن نحدد ؛ نريد ضماناً من إنسان قادر على تنفيذ ضمانه ! وهذا الضمان لا يعدو : حفظ ما وهبنا الله تعالى وارتضيناه وقنعنا به !

فدلونى أيها المحددون المنظمون على هذا الضامن ؛ ولن تجدوه ، بل ولن تتوهموه ! ولكنه القادر المتعال : هو الذى يحفظ ، وهو الذى يزيد ، وهو الذى ينقص « وكل شىء عنده بمقدار » .

وفوق كل ذلك فإن السعى إلى تحديد النسل أو تنظيمه : ما هو إلا مظهر من مظاهر معاندة الخالق سبحانه وتعالى ؛ التى أصبحت — فى العصر الحديث — ديدناً لمن يدعون العلم ؛ وما هم بعالمين !

وكثيراً ما تجمح النفس إلى عناد خالقها فيما يختاره ويقضيه ؛ وتنكره كثيراً من أفعاله المحكمة المبرمة ! وتنفر مما رسمه لخليقته ، وشاءه لعباده !

فقد عاندوه فى الرزق : فأفقرهم . وعاندوه فى العلم : فجهلهم . وها هم يعاندونه فى القلة : فكثرهم !

ولا أدل على ذلك من إحصائيات المواليد : فإنك لا تدخل أحد مستشفيات الولادة ؛ إلا وتجد الكثرة الغالبة من الوالدات قد ولدت توأمين أو ما يزيد !

وجاءت بذلك الأخبار تترى فى شتى البلاد التى قالت بالتحديد أو دعت إليه . حتى بلغ ما تلده المرأة فى المرة الواحدة : خمسة توائم !

وإليك نبأ من هذه الأنباء : فقد نشرت جريدة الأخبار فى عددها الصادر فى يوم ١٠ يناير عام ١٩٦٨ أن امرأة ولدت أربعة توائم ؛ رغم تناولها حبوب منع الحمل !

وجاء فى جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٩ يناير سنة ١٩٧٣ مايلى ؛ تحت عنوان :

تلد للمرة التاسعة رغم حبوب منع الحمل

وضعت سيدة استرالية ، فى الثلاثين من عمرها : مولودها التاسع ؛ رغم محاولاتها المستميتة لتحديد النسل .

وقد استخدمت فى محاولاتها سبعة عشر نوعاً مختلفاً من حبوب منع الحمل . كما أجرت جراحة للعقم .

فثبت من هذا : أن الله تعالى « بالغ أمره » وأنه جل شأنه جعل « لكل شىء قدراً » وهنا تذكرت قول الرؤف الرحيم ، ذى القلب السليم ؛ صلوات الله تعالى وسلامه عليه « ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة : إلا وهى كائنة » !

وقد ثبت أن حبوب منع الحمل هذه : ضارة متلفة ؛ فما أجدرنا بالإيمان بالله والرجوع إليه ، والتسليم لما أراده بعباده . وقدره لهم !

هذا وقد أذاعت وكالات الأنباء رأى طبيب من كبار أطباء انجلترا فى حبوب منع الحمل وأضرارها البالغة . وأن فى إحدى المستشفيات بلندن ٢٧٥ سيدة مصابات بتجلط فى الشرايين ؛ نتيجة لتناولهن حبوب منع الحمل .

كما صرح طبيب مصرى ، من كبار أطباء الولادة « الدكتور إبراهيم مجدى » .

صرح بالأضرار المترتبة عن تعاطى حبوب منع الحمل ، وأنها تسببت فى التأثير على الغدة النخامية ، والغدة الدرقية ، والغدة فوق الكلية .

وهذه الغدد لها أثر فعال فى تنظيم نمو الطفل وتنظيم التحام العظام .

وأن تعاطى هذه الحبوب : مجازفة بحياة النساء !

وأن من الواجب الامتناع عن تعاطى حبوب منع الحمل بكافة أنواعها ؛ حتى لا نقع فى مضاعفاتها فى المستقبل .

وأن من أضرار هذه الحبوب التى ثبتت فعلا :

١ — أضرار بالغة فى الجهاز الهضمى ، وغثيان ، وعسر هضم ، وقىء .

٢ — اختلال فى وظيفة الطمث ، ونزف فى مدة الحيض ، وانقطاعه لمدة طويلة .

٣ — ظهور شعر حول الذقن !

٤ — تزيد نسبة الشحم فى الجسم ، وتسبب سمنة مفرطة .

٥ — اختلال فى تفاعل الأملاح فى الجسم ؛ مما يحدث عنه احتباس ورشح مائى فى الجسم .

٦ — تسبب فى تشويه الأطفال الذين يولدون[1] .

وهذا فى الواقع قل من كثر . فهل بعد ذلك ننادى ونلح بوجوب تعميم تعاطى هذه الحبوب الفتاكة : خشية حدوث انفجار سكانى ، تعقبه مجاعة !؟

والقول بما يقولونه هو إحدى الكبر ؛ إذ كيف نقحم أنفسنا فى أمور ليس لنا عليها سلطان ، وما لنا بها طاقة ، ولا يحيط بها علم . أليس الله معنا ، يسمعنا ويرانا . ويعلم سرنا ونجوانا ، ومتقبلنا ومثوانا ؟

أليس هو الذى يرزق الطير فى وكناتها ، والوحش فى فلواتها ؛ فتغدوا خماصاً وتروح بطاناً ؟!

أليس الله تعالى هو القائل « وخلق كل شىء فقدره تقديراً » وهو جل شأنه القائل « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .

هل بعد هذا القول — الصادر ممن يملك الخلق والتقدير ، والإبقاء ، والإفناء — يجوز لمخلوق حقير — لا يملك قوت يومه ، بل لا يملك من قطمير — هل يجوز لمخلوق عاجز

---

(١) من حديث صحفى نشرته الجرائد فى حينه .

أن يجابه مولاه الغنى القوى ؛ ويقول له : لقد أسأت التقدير ، وأخطأت التدبير ؛ فلم تعد الأقوات التى أخرجتها : كافية للناس التى خلقتها !

وهو تعالت قدرته القائل : « وما كنا عن الخلق غافلين » .

وهل يجوز إذا قال أحد ملوك العصر : لقد دبرت لشعبى قوته ، وأمنته غائلة الجوع والعوز .

هل يستطيع أن يقوم فى وجهه أحد رعاياه : فيجابهه بالمخالفة : ويسفه رأيه ، ويطعن فى تنظيمه ؟

فإذا كان هذا لا يجوز ؛ مع تيقن خطأ الملك وفساد تدبيره ؛ فكيف يجوز أن نجابه بقولنا هذا الحكيم العليم ، القوى الغنى ، خالق المخلوقات ، ومخرج الأقوات ، ومبدع الكائنات ، ومدبر الأرض والسموات ؟ !

ومن العجيب أنهم يقولون : إن العالم عرضة لانفجار سكانى عنيف . يجأرون بهذا القول أمما قد تقدمتنا فى الحضارة . ولكن هذه الأمم قالت ما قالت : كفراً ؛ لااحتياجاً . بدليل أن أغلب هذه الأمم تجود بفائض محصولاتها على الأمم المتخلفة ، وتلجأ فى كثير من الأحيان إلى إلقاء بعض محاصيلها فى البحار .

وأين الانفجار السكانى المزعوم ، وها هى أرض الله واسعة : لم يعمر المعمرون منها معشارها .

وكيف يجوز لنا أن نداري عجزنا وجهلنا : بهذه الحجة الواهنة الواهية !

وهل الانفجار السكانى المتوقع : سيكون فى غفلة من الله تعالى !

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » !

وهذه الأمم نفسها حين تقول بتحديد النسل : تحاول إيجاد نسل عن طريق أنابيب الاختبار ؛ زاعمين أنهم سيتحكمون فى هيئة الجنين وفى صفاته وأخلاقه ؛ بمعنى أنهم سيتفوقون بما يصنعونه عما صنعه الله !

وثالثة الأثافى ، وداهية الدواهى ؛ أن يقوم وزير مسئول ؛ فينادى بتعقيم الرجال للحد من النسل !

والتعقيم هذا : هو بالخصاء أشبه . وهو رغم أنه تغيير لخلق الله : ملعون من يأتيه ، أو يأمر به ؛ بنص الحديث الشريف .

وهو بدعوته هذه : يتابع إحدى الدول المتأخرة ، غير الإسلامية ، وقد عقمت خمسة ملايين من شعبها ، وهى فى سبيل تعقيم عشرات الملايين من شعبها البائس ، الذى أهلكته الكوليرا والطواعين ! وهو لا يزال يرزح فى موجبات المرض والهلاك ، لعدم تقدم حاكيه !

وهذه النزعة : إن صح أن تفشو فى البلاد الغربية — التى تميزت بالإلحاد والمادية — فلا يجوز بحال أن تفشو وأن تشيع فى البلاد الإسلامية — التى تميزت بالإيمان والروحية —

وهل يجوز أن نؤمن بأن الله هو « الخلاق » ولا نؤمن بأنه تعالى هو « الرزاق » ؟

ويقول جل شأنه فى معرض الامتنان والإحسان : « واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم » فبان لنا من ذلك : أن القلة ذلة . والكثرة عزة !

فكيف نستبدل العزة بالذلة ، والكثرة بالقلة ؟ !

ويقول الله تعالى « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات » فنقول : دعونا من الحفدة والبنين ، فلسنا لهم بمطيقين !

ويقول أيضاً « وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » فنقول : وأين هذه المعايش ؟ وأين هذا الرزق ؟

قال الله تعالى « الله الذى خلقكم ثم رزقكم » فأتبع الخلق بالرزق !

وقال أيضاً « نحن نرزقهم وإياكم ... نحن نرزقكم وإياهم ... كلوا واشربوا من رزق الله . . . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

فإذا ما استمعنا إلى هذه الآيات البينات ، قلنا بلسان الحال والمقال : أين الرزق ، وأين الرزاق ؟ لقد كسد الحال ، وكثر العيال !

فإذا ما استمع مؤمن إلى هذا الهراء ، الذى هو أشبه بالكفر ، بل هو والكفر سواء ! قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » لقد حق علينا الهوان ، وبؤنا بالخسران !

والقول الفصل فى هذا : ما أشار إليه الذكر الحكيم بقوله « أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ؟

وأعقب ذلك بقوله « أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » ؟

وأعقبه أيضاً بقوله : « أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » ؟

كل هذا يقوله الخالق الرازق ، الحكيم العليم ؛ فما يزيدنا إلا كفراً وعناداً : من أين نرزق ؟ من أين نأكل ؟ من أين نطعم أبناءنا وحفدتنا ؟

وهذا نزغ من الشيطان ؛ نعوذ بالله تعالى منه « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » !

لقد تكفل الله بأرزاقنا ورزق أبنائنا وحفدتنا ودوابنا « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . . . وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » .

ولله در الخليل بن أحمد حيث يقول :

إن الذى شق فمى ضامن   للـــرزق حتى يتـــوفانى

وقال آخر :

وما مجاهدة الإنسان موصلة   رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه !
قد وزع الله بين الناس رزقهم   لم يخلق الله من خلق يضـــيعه !

وهل يملك الإنسان رزق نفسه : إذا حدد النسل ، أو منع النسل منعاً باتاً ؟ « إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

وماذا يكون الحال ونحن فى عهد القنابل الذرية والهيدروجينية التى تطيح إحداها بمئات الألوف من البشر ؟ بل ويزعمون أنها ستنهى العالم فى لحظة « ساء ما يحكمون » .

ماذا يكون حال الأمم التى حرمت التعدد ، وحددت النسل ؟

وها هى الأمم التى اكتوت بنار الحرب تشكو كثرة النساء ، وقلة الرجال والعيال .

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . . . إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

وقال تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين » .

وما دعا إلى هذه النزعة : سوى الجحود والكنود ، وسوء الظن بالله تعالى ، وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت ! وحاشاها أن تغلق فى وجه مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر !

وقد جاء عن رسول الإسلام ؛ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ؛ حين سئل عن العزل : « إنه الوأد الخفى » .

وحين سأله بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ؛ وقد عزلوا مع بعض السبايا[١] : غضب غضباً شديداً ؛ وقال : « وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ؟ ! ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة : إلا هى كائنة » وفى رواية : « لا تفعلوا فإنما هو القدر »[٢] .

هذا وقد وردت بعض أحاديث تؤيد جواز العزل ، وأن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه لم ينه عنه . وهى أحاديث يجب تأويلها لمعارضتها لما قدمناه من الأحاديث الصحيحة ، وإذا لم تؤول : فيكون لها مقاصد أخرى سامية ؛ ليس من بينها تحديد النسل !

وكيف يكون فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ما يدعو إلى تحديد النسل ؟ وهم حينذاك قلة ؛ تنوشهم الأعداء من كل جانب ! ؟

كيف يدعو إلى العزل من يقول بصريح القول ؛ فى شتى الأحاديث « تزوجوا الودود الولود ؛ فإنى مكاثر بكم » ، « تناكحوا تناسلوا تكثروا ؛ فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

كيف نرغب عن سنة الرسول — فى الكثرة وهى عزة — وندعو إلى القلة ؛ وهى ذلة ؟

وإذا كان مناط بحثها : خشية الكثرة فى النسل للفاقة ؛ فإنه فوق ما قدمنا وتقدم من فساد ذلك الرأى ؛ فكم قد رأينا إنساناً لم يرزق من زينة الحياة الدنيا سوى ولد واحد ؛ وهو — مع فيض رزقه ، وسعة عيشه — لم يستطع أن يتم تعليم هذا الولد الواحد ، أو يتم تثقيفه وتهذيبه !

وبعد ذلك يتركه عالة على المجتمع : جاهلا ، خاملا عاجزاً .

وكم قد رأينا رجلا — تحيط به الفاقة ، ويجتاحه الفقر المدقع — وقد وهبه الله تعالى من البنين والبنات عشرات ؛ فإذا بهم بمعونة من الله : زينة كل مجتمع ، وبهجة كل محفل : علما ، وأدبا ، وفضلا ، ونبلا !

والذى قلناه : هو الواقع الثابت ، الذى يحس به كل من حدد ، ومن لم يحدد ، ومن قال بالتحديد ، أو لم يقل به .

هذا وقد أورد الغزالى — رضى الله تعالى عنه — فى كتابه الإحياء : ما فهم منه بعضهم جواز العزل ؛ وبالتالى جواز التحديد . وهو فهم خاطىء ؛ كما سترى :

---

(١) ولا يخفى أن السبايا : ليس لهن ما للزوجات الحرائر من الحقوق .

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه : صفحة ٤٠ من جزء ١٠ طبع المطبعة المصرية .

قال الغزالى : ومن الآداب ألا يعزل ؛ بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث ، وهو الرحم ، فما من نسمة قدر الله كونها : ألا وهى كائنة ، هكذا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، إن الرجل ليجامع أهله ؛ فيكتب له بجماعه : أجر ولد ذكر ؛ قاتل فى سبيل الله فقتل .

وأشار الغزالى إلى أن ترك النكاح أصلا ، أو ترك الجماع بعد النكاح ، أو ترك الإنزال بعد الإيلاج : ترك للأفضل ، ولو أنه لم يصل إلى حد التحريم . لأنه لم يبلغ بعد حد جناية الإجهاض والوأد ؛ لأنها جناية على موجود حاصل .

وأول مراتب الوجود : وقوع النطفة فى الرحم ، واختلاطها بماء المرأة ، واستعدادها لقبول الحياة .

وأن إفساد ذلك : جناية قطعاً ، فإذا صارت النطفة علقة ومضغة : كانت الجناية أفحش ، فإذا نفخ فيها الروح ؛ واستوت الخلقة : ازدادت الجناية تفاحشاً !

وجميع ما تقدم : لا يتم إلا بترتيب ، وتنظيم ، وتقدير إلهى ؛ يسير وفقاً لحاجة الكون الماسة إليه ؛ فليس لكائن من كان أن يقول : إن حاجة الكون قبل الآن كانت ماسة ، والآن غير ماسة ، بل يجب على الكل التسليم بأن الحكمة فيما تم ، والخير فيما كان !

وإذا لم يكن طلب التحديد مكروهاً من حيث إنه دفع لوجود الولد ؛ فلا شك أنه مكروه مرذول : للنية الباعثة عليه !

إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة ، تشوبها من كل جانب شوائب الشرك الخفى !

وكل ما قاله الغزالى فى هذا الباب لا يؤدى إلى ما ذهب إليه المفترون عليه .

بل قصر قوله على أن أسباب العزل خمسة :

١ — فى السرارى — ٢ — استبقاء جمال المرأة — ٣ — الخوف من كثرة الحرج ؛ بسبب كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب .

وعقب الغزالى على هذا السبب الأخير بقوله :

نعم إن الكمال والفضل : فى التوكل من الثقة بضمان الله تعالى ؛ حيث قال : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ، ولا جرم : فيه سقوط عن ذروة الكمال ، وترك الأفضل .

ولكن النظر فى العواقب ، وحفظ المال وادخاره — مع كونه مناقضاً للتوكل — لا نقول : إنه منهى عنه .

والغزالى بقوله هذا : يعترف اعترافاً صريحاً : بأن هذا العمل مناقض للتوكل .

ومتى كان العمل مناقضاً للتوكل : فهو حرام قطعاً !

قال تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أى كافيه .

فمن أعرض عن التوكل : فقد تخلى عن كفاية الله تعالى له !

وقال جل شأنه : « إن الله يحب المتوكلين » ومتى كان الله تعالى يحب المتوكلين ؛ فإنه يكره من عداهم .

ومن ترك التوكل : فقد فارق حب الله تعالى له !

وقال عز من قائل : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . . . إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » .

فظهر لنا أن عدم التوكل : قرين عدم الإيمان بالله !

وذكر الغزالى فى السبب الرابع : الخوف من الأولاد الإناث ؛ لما يعتقد فى تزويجهن من المعرة . وقد ذم الغزالى هذا السبب .

وقد ذكر فى السبب الخامس : امتناع المرأة لتعززها ، ومبالغتها فى النظافة ، والتحرز من الطلق والنفاس ، والرضاع .

وذم الغزالى ذلك . وقال : إنه كان من عادة نساء الخوارج . وأنها نية فاسدة تخالف السنة !

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « من ترك النكاح مخافة العيال ؛ فليس منا (ثلاثاً) » .

« انتهى قول الغزالى »

ومن أعجب العجب : أن يتصدى بعض العلماء لهذه المسألة ، ويؤلفون فيها كتباً تحمل الخطأ المزرى ، والجهل المردى ! ويناحون فيها عن هذه الأفكار الفاسدة الكاسدة ، وهم بما يكتبون : لم يريدوا وجه الله ؛ بل هو ضرب من ضروب النفاق . عافانا الله بمنه عن ارتكابه ، أو الأخذ فى أسبابه !

وقد قلت فى التحديد أو التنظيم :

يقولون : تحديد : فقلنا خرافة ... وكيف نحد الخير يأتى به الرب[1] ؟!
فقالوه : تنظيم . فقلنا : سفاهة ... وكيف يكون البغض : مبعثه الحب[2] ؟!
فقالوا بأن الرب : قد شح رزقه ! ... فياويلكم : أين المطاعم والشرب ؟!
وأين عناقيد الكروم ؛ التى لها ... جمال؟ وأين النخل ، والتين والقضب[3] ؟!
وأين جنان الزيت ؛ يشفى قلوبكم ؟ ... وياويلكم : أين الفواكه والأب[4] ؟!
جنيتم على الدنيا بباطل زعمكم ... فشح كما قلتم ، وزاد بنا الكرب !
فعودوا إلى المولى : يجود عليكم ... ويأتيكم الرمان ، والتمر ، والحب !
وتؤتيكم جناته : كل معجب ... من الرزق : قد جادت به الشمس والسحب !
فياويلكم : ماذا دهاكم ، وما الذى ... تريدون من شعب أحاط به الرعب !
تعادون رباً قادراً ، ومهيمناً ! ... لحربكم سلم ، وسلمكم حرب !
كفرتم برزق الله ؛ هل ترزقوننا ؟ ... إذا أمحلت أرض ، وإن قصرت سحب !
وهل تخلقون الزرع ، أو تنبتونه ... إذا ما تخلى عنكم الأكل والشرب !
وهل توقدون النار ، أو تصنعونها ... إذا ما خبت نار الكريم ؛ ولن تخبو !
فروحوا ؛ كما راح الدجى بظلامه ... فقربكم بعد ، وبعدكم قرب !
لقد قلتم قول اليهود : إلهنا ... فقير ؛ ونحن الأغنياء ، قبح الذنب[5] !
إذا قيل : هذى جنة الخلد فادخلوا ... أبيتم ؛ وإن قيل : الجحيم ؛ فلن تأبوا !

ومن أعجب العجب ؛ أن أجهزة الإعلام فى مصر : تذيع تباعاً وجوب تحديد النسل ؛ وقد ساقوا دليلا لذلك أن المعركة التى نحن فيها : تحتاج لهذا النظام ؛

فانظر معى وتعجب مما يقول :

المعركة التى تحتاج إلى الرجال : فى حاجة إلى نقصان هؤلاء الرجال !

ولن أزيد على ذلك .

---

(١) من نافلة القول ؛ أن نقول : إن الكثرة خير ، والقلة شر ! فقد أوضحنا ذلك بهذا المبحث بما لا يدع زيادة لمستزيد .

(٢) كما أن الحب : لايبعث على البغض ؛ كذلك البغض : لايبعث على الحب !

(٣) القضب : جمع قضبة ؛ وهى الرطبة ؛ وهو كل ما اقتضب ــ اقتطع ــ فأكل طريا . وهو أيضا : ما يسقط من أعالى العيدان ؛ لتمام نضجه .

(٤) الأب : مرعى الدواب ؛ من أبه : إذا أمّه ؛ أى قصده .

(٥) قال تعالى «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء» وذلك قول اليهود ؛ قاتلهم الله !

يقول المولى : الخالق ، البصير ، الخبير : « واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم » ونحن نقول : واذكروا إذ كنتم كثيراً فقللكم .

أغيثونا ياذوى العقول والألباب ، فقد جانب القوم الصواب ، وأبوا الاستماع إلى نصح البارىء الوهاب !

فيا بؤس من ينحرف عن نصح ربه ، ويتبع نصح شيطانه !

هذا شأننا فى زمن الحرب والقتال ، والتعرض لنقصان الرجال !

أما عدونا العنيد اللدود : فيتسول الرجال من شتى الممالك والأقطار ، ليستطيع الوقوف أمام هذا الجيش الجرار ، الذى وهبنا إياه المولى سبحانه : نعمة ، فحسبناه نقمة ! ونحاول جاهدين صرفها عنا ، وحرماننا منها !

ومن ضمن ما قالوه فى هذه الحملة التليفزيونية : قول الله تعالى « إنا كل شىء خلقناه بقدر » لذا يلزمنا أن نحدد النسل ونقدر الأبناء أيضاً .

وكأنهم فهموا من تقدير المولى سبحانه : أنه أخطأ التقدير ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

هذا : ويقول الحق سبحانه وتعالى : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً » ومن المعلوم أن الهبة لا تكون إلا فى الخير المحض ، فلا يجوز أن يقال : وهبه الله تعالى داهية ، أو أنعم عليه برزية ! بل كل ما ساقه الله تعالى فى كتابه الكريم بمعنى الهبة : هو خير محض ، وسعادة بينة : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق . . . ووهبنا له إسحق ويعقوب . . . ووهبنا له من رحمتنا . . . ووهبنا له يحيى . . . لأهب لك غلاماً زكياً . . . رب هب لى من لدنك ذرية طيبة . . . ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين . . . وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

أما الجعل : فقد يكون خيراً ، وقد يكون شراً ، فمثال الخير قوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض . . . وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين . . . جعلنا الأنهار تجرى من تحتهم . . . وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » .

ومثال الشر قوله جل شأنه : « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة . . . فجعلهم كعصف مأكول » .

فقوله تعالى : « ويجعل من يشاء عقيما » يقتضى الشر المحض ، إذ لا يوجد إنسان

يستكمل سداده وعقله : يتمنى أن يكون عقيما مقطوع العقب ! اللهم إلا إن كان من أنصار التحديد !

فكيف نحاول جاهدين — بإرادتنا المحضة — أن نمنع هبة الله تعالى لعباده ، أو أن نوقفها ونحد من نمائها ؛ وقد أحاطها المولى الكريم الحكيم بسياج منيع يحد من نقصها أو فشلها . قال جل من خالق ، وعز من رازق : « أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » وقد ثبت علمياً : أن عدد الجراثيم المنوية — التى يتكون منها الجنين — يبلغ مئات الملايين ؛ فى حين أن الجنين يتولد من واحدة ليس غير من هذه الجراثيم !

فانظر يا رعاك الله وهداك ، إلى حكمة مولاك وتدبيره فى إيجاد الكائنات !

ونحن الآن فى عصر العلم — الذى يزعمون أنه أزهى العصور — نريد بجهلنا وحمقنا أن نهدم ما بناه الله تعالى من تدبير الكائنات والمخلوقات ؛ وهيهات هيهات ، أن نحارب جبار الأرض والسموات !

فيا أيها الناس : اتقوا ربكم الذى خلقكم ، وتكفل بأرزاقكم ، ولا تقحموا أنفسكم فيما ليس لكم به علم ، وادعوا الله تعالى : ألا يكل أحدكم إلى نفسه فيهلك ، واذكروه كما هداكم ورزقكم من الطيبات ، وفضلكم على العالمين !

ولا تفيضوا فى هذا الحديث « ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » !

وتذكروا قول الحكيم العليم ، الرؤف الرحيم « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » !

ونريد أن نهمس فى آذان من يقولون بالتحديد : أن ما يبعثه الله تعالى من نسل ؛ لم يكن مستهلكا فحسب ؛ بل هو منتج قبل أن يكون مستهلكا !

ولكن قلة الكياسة ، وسوء السياسة : حدت بكم إلى الدعوة لما تدعون إليه !

وسنختم هذا المبحث بما بدأناه به : من قول البارئ المصور ، الحكيم العليم : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار » وقوله جل شأنه « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » .

فإذا كان المولى جل شأنه يعلم — علم إنشاء وإرادة — ما تحمله كل أنثى فى أرحامها ،

وما تنقصه تلك الأرحام مما تحمله : بسقوط الأجنة ، وما تزيده : من تعدد الأجنة فى الرحم الواحد ؛ بولادة واحدة « التوائم » .

وجميع ذلك : مقدر بمقدار معلوم لديه ؛ تقتضيه الضرورة ، وتستلزمه الحاجة والمصلحة وعلمه جل شأنه — كما لا يخفى — سابق لأمره !

إذا كان ذلك كذلك : فمن أعلم من الله ؟ ومن أخبر منه بحاجة مخلوقاته وكائناته ؟ !

والقول بتحديد النسل : هو منتهى سوء الظن بالله ، واليأس من قدرته وعدالته !

قرار المؤتمر الإســـلامى

هذا وقد كفانا مؤتمر « مجمع البحوث الإسلامية » المنعقد فى القاهرة عام ١٩٦٥ والذى جمع أكثر من مائتى عالم من مختلف الدول ، والذين يمثلون شتى المذاهب والطوائف الإسلامية : كفانا مؤنة الدفاع عن هذه العقائد « تعدد الزواج . حرية الطلاق . تحديد النسل » التى تعتبر جميعها — كما بينا — من صميم الدين ، ومن صلب العقيدة الإسلامية ! فضلا عما ينجم ؛ من تضييقها وتحديدها : من أضرار اجتماعية ! فقد كفانا مؤنة الدفاع عنها ؛ وقد دافع الله تعالى عنها فى محكم كتابه ، ودافع عن المدافعين عنها ؛ لاتصافهم بالإيمان : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

وقد كان قرار المؤتمر كافياً شافياً ، لم يدع كلمة لقائل ، أو مغمزاً لغامز !

وهاكم نص هذا القرار السليم ، الحكيم ؛ بعنوان « شئون الأسرة والشباب » :

أولا — بشأن تعدد الزوجات :

يقرر المؤتمر أن « تعدد الزوجات » مباح بصريح نصوص القرآن الكريم ؛ بالقيود الواردة فيه ، وأن ممارسة هذا الحق : متروكة إلى تقدير الزوج ، ولا يحتاج فى ذلك إلى إذن القاضى .

ثانياً — بشأن الطلاق :

يقرر المؤتمر أن « الطلاق » مباح فى حدود ماجاءت به الشريعة الإسلامية ، وأن طلاق الزوج يقع دون حاجة إلى إذن القاضى .

ثالثاً — بشأن تحديد النسل :

يقرر المؤتمر ما يلى :

١ — أن الإسلام رغب فى زيادة النسل وتكثيره ؛ لأن كثرة النسل : تقوى الأمة الإسلامية : اجتماعياً ، واقتصادياً ، وحربياً ، وتزيدها عزة ومنعة !

٢ — إذا كانت هناك ضرورة شخصية تحتم تنظيم النسل : فللزوجين أن يتصرفا طبقاً لما تقتضيه الضرورة ؛ وتقدير هذه الضرورة متروك لضمير الفرد ودينه(١) .

٣ — لا يصح شرعاً وضع قوانين تجبر الناس على تحديد النسل بأى وجه من الوجوه !

٤ — أن الإجهاض بقصد تحديد النسل ، أو استعمال الوسائل التى تؤدى إلى العقم لهذا الغرض : أمر لا تجوز ممارسته شرعاً للزوجين ، أو لغيرهما(٢) .

ويوصى المؤتمر بتوعية المواطنين ، وتقديم المعونة لهم فى كل ما سبق تقريره بصدد تنظيم النسل .

والذى نريد أن نسجله فى هذه الكلمة : أن الفضل كل الفضل للسادة العلماء القادمين من شتى الأقطار الإسلامية ؛ فقد راعوا دينهم وربهم ، ولم يخرجوا فى آرائهم عما حددته الملة السمحاء ؛ فاستوجبوا رضا أمتهم — خير الأمم — ورضا ربهم : مالك خيرى الدنيا والآخرة !

أما من نافق فى رأيه ، أو اتبع هوى فى نفسه : فلا يسعنى إلا ما وسع عيسى ابن مريم — عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام — حيث قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

---

(١) وقد أريد بالضرورة : المرض الذى يضر الحامل فى بدنها .

(٢) أريد بالوسائل التى تؤدى إلى العقم : ما يصنعونه من حبوب طبية مانعة للحمل ؛ وقد ثبت ضررها ، وفتكها بأناس كثيرين .

التبرج والسفور

يقول الله تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين[1] عليهن من جلابيبهن[2] ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما[3] ﴾ .

وهو أمر صريح لسائر نساء المؤمنين وبناتهم بإرخاء الجلباب ليستر سائر الجسم حتى لا تعرف المرأة : من هي ؟ وما شكلها ؟ وما هيئتها ؟ وليفرق ذلك الستر بينها وبين الإماء ، وليبتعد عن إذايتها المرتاب ، ومن في قلبه مرض !

والمراد أيضاً في هذه الآية : إدناء الجلباب والخمار ؛ وهو من باب ذكر البعض وإرادة الكل ؛ وإلا فالجلباب بغير خمار لا يمنع من التعرف بالمرأة ؛ إذ أن وجهها ينم عليها : يؤيد هذا المعنى قوله عز من قائل ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن[4] ﴾ .

ويقول الله تعالى أيضاً ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم[5] ﴾ وكيف يتوفر غض البصر ؛ وقد انتشرت النساء في الطرقات والمنتديات ؛ كاسيات عاريات ؛ لا يحجبهن عن الأنظار سوى غلالة من هواء ؛ تزيد في فتنتهن ، والإغراء بهن ! وكما أن تحريم الخمر : لا يبيح صنعها ، فكذلك تحريم النظر لا يجيز الحث عليه ، والتشويق إليه . وكيف يغض البصر غاض ؛ وقد امتلأت الطرق والحوانيت بالكاشفات عن النحور ، والثدى والصدور ؟ اللهم إلا إذا أغمض عينيه ، وأسلم نفسه وروحه للمتادير ؛ فتتلقفه الأحداث ، ويحيط به الموت وأسبابه من كل جانب ! وهذا أمر يخرج عن حد التكليف المعقول المقبول ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ .

وإثم ذلك لا يقع على هؤلاء السافرات المتبرجات وحدهن ؛ وإنما إثمه واقع على أشباه الرجال الذين يكفلونهن ، ويدبرون هذه الفتنة وهذا الفجور !

---

(١) « يدنين » أي يرخين . يقال : أدنيت الستر ؛ إذا أرخيته .
(٢) الجلباب : ثوب يستر جميع البدن ، وقيل هو القناع .
(٣) آية ٥٩ من سورة الأحزاب .
(٤) آية ٣١ من سورة النور . و « الخمار » غطاء الرأس . و « الجيب » فتحة الثوب مما يلي العنق .
(٥) آية ٣٠ من سورة النور .

وليس معنى هذا أنا نبيح للرجال النظر للأجنبيات ، ما دمن سافرات ؛ بل إن غض البصر من ألزم اللوازم ، وأفرض الفرائض ؛ بل هو فى مقدمة الخلال الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ؛ وكيف يسلم الإنسان الكامل نفسه للشيطان ، ويدع بصره يرديه فى العصيان ؟ وما أحسن قول الشاعر :

لواحظنا تجنى ؛ ولا علم عندها وأنفسنا مأخوذة بالجرائر(١)

ولم أرَ أغبى من نفوس عفائف تصدق أخبار العيون الفواجر

ومن كانت الأجفان حُرَّاس قلبه أذنَّ على أحشائه بالفواقر(٢)

ولا عبرة بما قاله لفيف من الشعراء الماجنين ؛ الذين لا يعبأون بحلال ، أو حرام . بل يسيرون وفق هواهم : مخالفين بذلك مولاهم !

فمن ذلك قول بعضهم :

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظ لى فيه : إلا لذة النظر !

وقول الآخر :

أمتع فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال المحرما

وأى إثم أكبر من اتباع الحسن ، والتلذذ بالنظر ؟ وقد نهى ربك عن النظر أصلا !

وأى محرم أفحش من إمتاع ناظريه ، فى روض المحاسن ؛ التى حرمها الله تعالى عليه !

ومن المعلوم أن النظر : بريد الزنا !

ومثال هؤلاء — الذين أحلوا ما حرم الله — كمثال من يسرق الفاكهة من بستان غيره ؛ ويقول : ما ألذها وما أحلاها ! وما أبهى منظرها وطعمها(٣) ؟

وكأنهم لا يرون حراماً : دون الزنا ؛ لأنه فى نظرهم هو العمل المادى المؤاخذ عليه !

فى حين أن الله تعالى نهى عن النظر : نهياً صريحاً فصيحاً : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » .

---

(١) الجرائر : جمع جريرة ؛ وهى الذنب والجناية .

(٢) الفواقر : جمع فاقرة ؛ وهى الداهية العظيمة قال تعالى « ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » أى تأكدت بأن تنزل بها داهية .

(٣) وجه المقابلة : أن السرقة حرام ، والنظر حرام أيضاً ، والسرقة اعتداء على ملك الغير . والنظر اعتداء على ملك الغير أيضاً ؛ بل اعتداء على حرمات الله !

وقال أحد الحكماء : من طاوع طرفه : تابع حتفه !

وقيل : إن الشافعى رضى الله تعالى عنه — وقد كان يلقى دروساً على طلابه بالمسجد الحرام — أتاه شاب فأعطاه ورقة ؛ فقرأها الشافعى وكتب عليها رداً لما جاء بها . وانصرف الفتى ؛ فقال بعض الطلبة : لابد أنها فتوى ، نستفيد بالاطلاع عليها . فأسرع بعضهم وراءه ، وقال له : بالله عليك أرنا ما أفتاك به الإمام .

فأراهم ورقة مكتوب فيها :

سل المفتى المكى : هل فى تزاور … وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

وقد كتب الشافعى بخطه — على الورقة — إجابة لهذا السؤال :

أقول : معاذ الله أن يذهب التقى … تلاصق أكباد بهن جراح !

فعجبوا من ذلك أشد العجب ؛ وحق لهم أن يعجبوا :

كيف يبيح الشافعى ذلك ؟ وهو من هو : علما وفقها ، ودينا وتقى !

فرجعوا للشافعى رضى الله تعالى عنه متسائلين :

لقد رأيناك يا سيدى منذ قليل تكتب فتوى لسائل ؛ فما هى ؟

قال : سألنى هل يجوز له تقبيل امرأته وضمها فى الصيام ؟ فأجبته بالإيجاب .

فقالوا له : ولكن لم يصرح لك بذلك .

فقال : قد فهمت سؤاله ، وأجبته عليه .

فعادوا إلى الفتى ، فسألوه : ماذا كان يقصد من سؤاله ؟

فقال : سألت الإمام عن جواز تقبيل امرأتى وضمها فى الصيام ؛ فأجابنى .

فازداد عجبهم لمزيد فهم الشافعى ، وغزير فضله ونباهته !

لكن البغاة الطغاة : شوهوا جمال هذه القصة وجلالها ، وما احتوت عليه من فقه ، وكمال ، وأدب ؛ فرووا البيتين :

سل المفتى المكى : هل فى تزاور … وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

فقال : معاذ الله أن يذهب التقى … تلاصق أكباد بهن جراح ؟

فى حين أنهم بذلك قد حرفوا المعنى والمبنى : وأساءوا للدين والأخلاق !

هذا وقد حد الله تعالى حدوداً يجب على المؤمنات ألا يتجاوزنها ؛ فقال عز وجل ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن : أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء[1] ﴾ .

وهذه الأصناف التى أبيح للمرأة عدم إخفاء زينتها عليهم ؛ لا يصح تجاوزهم إلى غيرهم ؛ فكيف يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تتعدى حدوده ، وتنتهك محارمه ، وتبدى زينتها ، وما وراء زينتها لرجال حرم الله تعالى عليهم النظر إليها ! ؟

هذا وقد أخذ كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى تأويل هذه الآيات مأخذ الشدة — لعلمهم أن النساء يتغالين فيما يسمح لهن به ، ويتجاوزن الحدود المرسومة لهن — فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : تستتر المرأة حتى لا يظهر منها سوى عين واحدة تبصر بها . وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : تغطى نصف وجهها .

وقد ذهبوا إلى وجوب ستر الوجه والكفين أيضاً ، وأن إبداءهما رخصة عند الخطبة فحسب .

ودليلهم على هذا قول الحكيم العليم « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » .

ولا أدل على التعرف على الإنسان من وجهه ؛ فوجب ستر وجه المرأة تطبيقاً لهذه الآية الكريمة .

ودخل نسوة على أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها ؛ وعليهن ثياب رقاق[2] فقالت عائشة : « إن كنتن مؤمنات : فليس هذا بلباس المؤمنات ! وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعن به » .

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم فى وصف ما نراه الآن : « نساء كاسيات عاريات[3] ،

---

(١) آية ٣١ من سورة النور .

(٢) أين تلك الثياب الرقاق مما يلبسه نساء اليوم من ثياب لا تحجب ما تحتها ؛ حتى ان المرأة لتبدو كأنها عريانة ؛ لا يحجبها حاجب ، ولا يسترها ساتر !

(٣) أى مكسوات اسماً ، وعرايا فعلا . أو المقصود : عرايا من الإيمان .

مائلات مميلات[١] ، رءوسهن مثل أسنمة البخت[٢] ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، !

وهل بعد نفى الإيمان ، والحرمان من الجنان ؛ يقوم إنسان فيدعو لهذا السفور ، بل هذا الفجور ! ؟

وقد قام أناس — غفر الله تعالى لهم — بالدعوة إلى السفور والحض عليه ، وذم الحجاب ؛ الذى مدحه الله تعالى ورسوله وأمرا به ؛ وقد قال قائلهم :

أخر المسلمين عن أمم الأر ض حجاب تشقى به المسلمات[٣]

وقد جعلت هذا البيت مطلعاً لقصيدة قلتها من عشرات السنين — قبل أن يستفحل الأمر ، ويجل الخطب — وقد نسيت أكثرها ؛ ولا بأس من تدوين ما تذكرته منها ، عسى أن يتعظ به متعظ ، أو يستفيد به مستفيد :

أخر المسلمين عن أمم الأر ض حجاب تشقى به المسلمات[٤]
بئس ما يدعى فلاسفة العصـ ـر من ان السفور فيه الحياة
وهو حق إذ أن أسلافنا الأعـ ـراب من فرط من يحبون ماتوا[٥]
يا خليلى حدث عن الشرق قدماً حين كانت تعظم المعجزات
حين كان القرآن يرجى ويخشى والقوانين : آيه البينات
حين كان الحديث يتلى ولا ير ويه إلا ذوو العقول الثقات

* * *

إننا فى الزمان نلقى[٦] أناساً فى التوضى علومهم قاصرات[٧]

---

(١) أى يتمايلن فى مشيتهن ، ويميل إليهن من فى قلبه مرض من الرجال .

(٢) أسنمة : جمع سنام . والبخت : نوع من الإبل . (٣) من قول شاعر العراق جميل صدقى الزهاوى.

(٤) صدرت بهذا البيت قصيدتى لأرد على هذا الرأى الفاسد الذى يتعارض مع صريح القرآن الكريم ؛ فما أخر المسلمين سوى السفور ، الذى أفسد الدين وسود الصدور ، أدركنا الله تعالى بلطفه ! وهذه الأبيات من قصيدة طويلة . قلتها فى صباى . وما تذكرت منها سوى ما أوردته .

(٥) تهكم بهذا الرأى الفاسد ، والقول المذموم ؛ وإشارة إلى من مات من أعفاء العرب حزناً وجوى على عدم نيل من أحب . هذا فى حين أن السفور الممقوت قد خلط الحابل بالنابل ، وجعل الحبيب متمكناً من حبيبته ، والعاشق مالكا لعشيقته ؛ فانقشع بذلك الأسى والجوى ، وحل مكانهما القرب والنجوى ، فعم بذلك الشر والبلوى ، واستوجبوا الحرمان والنيران ، وغضب الرحمن الديان ؛ فلاحول ولا قوة إلا بالله !

(٦) نلقى : نجد .

(٧) أى لا يتقنون الوضوء ؛ وهو أبسط الأشياء فى الشريعة والفقه ، أو لا يقومون به أصلا لتركهم الصلاة ، وهذا شأن الكثيرين ممن دعوا إلى السفور .

وهموا بعد يدعون علوماً أنكرتها عصورنا الخاليات [١]
ليت شعرى ماذا يريدون منا وصنوف الأذى بنا محدقات

° ° °

بنت مصر هاتى سفورك واغشى كل ناد ولتمل منك الجهات [٢]
عرفى نفسك الغداة وطوفى لا تفتك الأسواق والحانات [٣]
ثم أمى مجالس القوم وادعيهم إلى حيث لا تمل الدعاة
علنا بالسفور نبنى حصوناً شامخات بها ترد العداة
وعسانا نرى البرايا سجوداً لابن مصر وقد عداه السبات [٤]
ولعمرى لقد بكى الدين حزناً حين قال الخطيب يا سيدات [٥]

وحقاً إن الدين ليبكى حزناً حين تختلط الفتيات بالفتيان ، ولا تعرف الحرائر من القيان [٦] ، وتكشف المرأة — للأجانب عنها والذين ليسوا بمحرم لها — عن جسمها ومفاتنها بغير خجل ولا حياء ولا مروءة ! فلينظر ذلك وليعتبر به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد !

وإن دعاة تحرير المرأة : لم يدعوا إليه إلا لعلمهم أنها لا تفهم لتحررها معنى سوى الانطلاق على سجيتها فى الطرقات والمحافل العامة : شبه عارية تزرع الفتنة فى قلوب الرجال . أو لتعمل مضيفة تسلى الراكبين باللفتة الملفتة ، والبسمة المطغية . أو موظفة تندس بين صفوف الموظفين ، تنوشها العيون ، الزائغة التى تحملق فى جوع ونهم إلى وجهها الذى جمله الشيطان ، وقدها المياس الذى يذكى فى نفوسهم عوامل الشر والجريمة !

---

(١) وذلك عما يزعمونه من أن السفور لا يتنافى مع الدين ، على ما فيه من تبرج وزينة يأباها الدين القويم ، والخلق الكريم !
(٢) هو أمر قصد به الاستهزاء والتهكم .
(٣) وقد تغالت النساء فى زماننا هذا حتى أصبحن لا يتورعن من غشيان الأسواق والحانات ، بل والمراقص أيضاً ؛ بغير وازع من دين ، أو رادع من خلق !
(٤) عداه السبات : تركه النوم والخمول .
(٥) أى عند ما غشيت النساء المحافل والمنتديات ، وقال الخطباء : سيداتى سادتى .
(٦) القيان : جمع قينة ، وهى الأمة البيضاء . وقد غلب على المغنيات والراقصات المتبذلات .

وهى فى كل ذلك تزاحم الرجال فى المركبات العامة ، والمجالس ، والطرقات : تزاحمهم بالصدر والعجز ؛ وهى غير مبالية بما تفعله تلك المزاحمة من رواج لأسواق الشيطان !

فإن تم تعلمها ، وحسن إدراكها وفهمها ، ووقفت بينهم خطيبة : فإنما تقف لتستعرض مفاتن جسمها ؛ أكثر مما تستعرض مواهب عقلها ، ولتستدر الإعجاب بجمالها ؛ أكثر مما تستدره برأيها وفكرها .

وخير عندها ألف مرة أن يقال لها : كم أنت جميلة فاتنة ؛ من أن يقال لها : كم أنت ذكية فاهمة !

فإن شذت واحدة منهن — لكرم أصلها وطيب عنصرها — فاحتفظت لنفسها بدينها وكرامتها ، ولزوجها بجمالها ورشاقتها ، ولولدها بحبها وحنانها : حسبت أسيرة فى المنزل ، لا تمد يدها لخدمة المجتمع ، وقال شاعرهم :

أخر المسلمين عن أمم الأر ض حجاب تشق به المسلمات

هذا فى حين أن المرأة المسلمة قد استطاعت فى شتى العصور : أن تؤدى أجل الخدمات لأمتها ومجتمعها ؛ دون أن تغمز بعين ، أو تميس بقد ، أو تكشف عن صدر أو نحر ؛ فتدخل النار بما فعلت ، وتدخل معها من شغل بها من ضعاف الدين والعزم !

والمرأة المسلمة حقاً واجباتها أكثر : فمن واجباتها ألا يقعدها ظلام الجهل فى مكانها ؛ بل عليها أن تسعى إلى العلم النافع ؛ فإذا ما تعلمت لا يطغى بها الغرور العلمى عن مكانها الذى أعده الله تعالى لها ؛ إذ أنها عماد الأسرة فى التربية والتوجيه ، وهى عماد الأمة فى النصح لله تعالى ولرسوله !

وهى أيضاً ظهيرة الرجل فى الكفاح من أجل الدين والوطن : ثابتة فى الصف الثانى ؛ لتكون دائماً ردءاً للرجل ، ومرجعاً له : إن استشارها نصحته ، وإن رجع إليها من عنت العمل ومشاق الكفاح : غمرته بالحب والحنان ، ووطأت له كنف المنزل ؛ فوجد فيه الهدوء لنفسه ، والراحة لبدنه !

وهذا هو الإطار العام الذى يجب أن تبدو فيه المرأة المسلمة ؛ فإن زادت على ذلك : فقد أحاط بدينها الغموض ، وتلقفتها الشكوك والريب ، ولاكتها الألسن والأعين !

ما من شك أن هناك فلتات فى التاريخ لا يقام لها وزن ؛ لأنها تبلغ حد الندرة التى لا حكم لها .

ولم يغض من قدر أم المؤمنين عائشة رضوان الله تعالى عليها أنها لم تكن سافرة ؛ فمع الحجاب الشديد الذى كان يلفها — من رأسها إلى قدميها — فقد كانت من أعلم الناس ، وعنها أخذ المسلمون نصف دينهم !

وقد كان من فضل النساء فى العصر الأول : أن يلجأ إليها أفاضل العلماء ، ويقولوا : تعالوا بنا نستشير وقاية ؛ فعصابتها خير من عمائمنا[1] !

وانظر إلى وصية إحداهن لابنتها عند ما زفت إلى زوجها : لا يأكل خير ما فى بيتك غير زوجك ، ولا تكشفى عن رأسك فى بيت غيرك : ولو كان صاحبه فى العراق !

فما أحلى هذا الخلق ، وما أبدع هذا النصح !

هذا وقد بلغت حرية كثير من الغربيين شأواً بعيداً ، متحررين من سائر قيود الأخلاق والفضيلة ، ضاربين بالكرامات والأعراض عرض الحائط ؛ غاضين البصر عن كل ما يحد من الملذات ، أو يضيق أفق الإباحية المطلقة ، والتمتع الجنسى الخالص من القيود !

فقد ضبط أحد الأزواج — فى منزل الزوجية — زوجته عارية كيوم ولدتها أمها ، بصحبة رجل أجنبى عنها عرياناً أيضاً كيوم ولدته أمه : فرفع أمره للقضاء طالباً الطلاق من زوجته البغى التى استهانت بكرامته وكرامة منزل الزوجية المقدس ! غير أن القضاء الإنجليزى فى إحدى محاكم لندن لم يرقه تصرف ذلك الزوج الرجعى الذى لا يتمشى مع التقدم الغربى والرقى الاجتماعى ؛ فقضى برفض دعواه : مبرراً هذه الفعلة بأن الزوج يجب عليه أن يقدر الظروف والتقاليد[2] !

وقد ضبط أحد الشبان الهنود — وقت إقامته بباريس — رجلا يجلس مع امرأة فى حالة مريبة واضحة الفجور فى الطريق العام ؛ فلم يجد بدأ من الاستعانة بجندى البوليس ؛ الذى قبض على الشاب الهندى المبلغ بتهمة الإخلال بالحرية الشخصية !

فرحى مرحى لهذه الحريات ؛ التى تقوم على أشلاء الفضيلة !

وهكذا كلما ازددنا تنكراً لتعاليم الدين الإسلامى الحنيف : ازددنا بعداً عن الأخلاق والمروءة والكرامة والعفة ؛ بل خرجنا من عداد بنى الإنسان ، إلى عداد الحيوان ! وقد نرى فى بنى الإنسان من يأتى عملا ينزه الحيوان نفسه عن إتيانه ! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

---

(١) وقاية : امرأة عالمة فاضلة ، كانت بإحدى مدن ليبيا ، وكان أفاضل القوم يتبركون برأيها ، ويستمعون لقولها .

(٢) هذا الخبر منشور بجريدة أخبار اليوم س ٢ عدد ٦٠٨ الصادر فى ٣٠ يونية سنة ١٩٥٦ .

هذا وقد أصبحنا فى زمن ؛ فشا فيه الانحلال والاضمحلال : فترى الشاب والفتاة ؛ فلا تعلم من منهما الشاب ، ومن منهما الفتاة ! ؟

شباب مخنث : لا يعبأ إلا بزينته ، وتصفيف شعره ، وتحزيق ملبسه[1] ، وقد قلت فى ذلك من قصيدة طويلة :

كيف ينجو التشوم والشر صاح   يتصدى بسائر الطرقات
فتيات : يلحن كالبدر حسناً   بقلوب قددن من صخرات
ورجال : تسير تيهاً وعجباً   كنساء ؛ يخطرن كالفاجرات
لا تفرق بين الرجال وبين النسـوة : صوتاً ، وملبساً ، وخطاة
يتثنى الفتيان فى المشى كالأفـعى ، وتمشى الغادات كالعاريات
إيه ياأيها الشباب : أترضوا   أن تكونوا فى السير كالعاهرات ؟
ما رأينا والله فيمن رأينا   مثل أخلاقكم بهذى الصفات
عهد لوط من بعد نوح تولى[2]   وأتانا النبى بالمعجزات
أبدل البغاة الطغاة ؛ فصاروا   بقلوب تفيض بالرحمات
يرحمون الضعيف فيهم ، ويلقوا   كل عات بقسوة وثبات
فتحوا الفرس : فتح قرم عنيد   وسقوا الروم فرقة وشتات
أغمدوا السيف فى صدور عداهم   لم يلاقوا الحروب بالكلمات
سنة الله : أن تكونوا رجالا   وتكونوا من صادقى العزمات
أين أنتم من إخوة سبقوكم   لصفوف الجهاد كالباشقات[3]
ما الذى أوجب التخلف عنهم   حيث صرتم كالأعظم النخرات
فتعالوا أيها الشباب فأنتم   لى ؛ وإن أمحل الدواء أساتى
واتركوا اليوم ما جبلتم عليه   ودعوا الموبقات والشهوات
لتروا فى الحياة كل جميل   وتكونوا من سادة السادات

---

(١) حزق ملبسه : ضغطه وضيقه .

(٢) إشارة إلى أن قوم لوط : كانوا يأتون الذكران دون النساء .

(٣) الباشقات : جمع باشق . وهو من جوارح الطير .

التعطيل

لقد فشا بين الأمم المتقدمة مذهب التعطيل[1] ، وأخذه عنهم بعض الضالين من المتأخرين . وكل هؤلاء مقفرة عقولهم ، معطلة قلوبهم !

« وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[2] .

فرد الله تعالى على زعمهم هذا بقوله عز من قائل « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم » للحساب يوم القيامة « قال أليس هذا » البعث « بالحق » كما أخبرتكم على لسان رسلي ؛ فكذبتموهم وآذيتموهم وقتلتموهم « قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون »[3] بذلك اليوم .

« قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها »[4] أى فى الدنيا بعدم الإيمان بالساعة .

قال تعالى « قل الله يحييكم » بالخلق ابتداء « ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة » للحساب والجزاء « لاريب فيه » أى لا شك فى مجىء ذلك اليوم الموعود « ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[5] .

وهل يجوز عقلا وجود مصنوع بغير صانع ، ومخلوق بغير خالق ؟ أم هل تجوز

---

(١) التعطيل لغة : التفريغ والإخلاء وترك الشيء ضياعاً . وإبل معطلة . لا راعى لها . وتعطل : بقى بلا عمل . وتعطلت المرأة : إذا لم يكن عليها حلى ، ولم تلبس الزينة وخلا جيدها من القلائد . والمعطل : الموات من الأرض . وثغر معطل : إذا ترك بلا حام يحميه . وبئر معطلة : لا يستقى منها ولا ينتفع بمائها . ومن أنكر البعث : فقد قال بالتعطيل ؛ لأنه ترك الكون ضياعاً وهملا ، لا راعى له ، ولا مدبر لأمره . وحاشا أن يكون كذلك !

(٢) آية ٢٩ من سورة الأنعام . (٣) آية ٣٠ من سورة الأنعام .

(٤) آية ٣١ من سورة الأنعام . (٥) آية ٢٦ من سورة الجاثية .

نسبة خلق هذا العالم البديع ، وهذا الإنسان الناطق المبصر السميع ، وهذه الشموس المنيرة ، والكواكب المضيئة ، والسماوات المرفوعة ، والأرض المبسوطة ، وتلكم الأزهار الناضرة ، والمناظر الساحرة ، والطيور السابحة فى الهواء ، والأسماك الجارية فى الماء ، والفاكهة التى تسر الآكل والناظر ، وسائر المطعومات ، والمشروبات ، والمشمومات ؛ واختلاف كل هذه المخلوقات : منظراً ومخبراً ؛ هل يجوز خلق جميعها بلا خالق يخلقها ، أو مدبر يدبرها ؟ وهل هى الطبيعة كما يقولون ؟ وهل قام هذا الكون باطلا ، وهذه المخلوقات عبثاً ؛ فلا بعث ولا حساب ، ولا نعيم ولا عقاب ؟ لقد ارتكبوا إثماً وجوراً ، وقالوا بهتاناً وزوراً !

هذا وقد جهر بهذا القول السقيم ، والرأى الفاسد العقيم : كثير ممن طبع الله تعالى على قلوبهم فهم لا يفقهون ! فمن ذلك ما قاله شاعر العراق جميل صدقى الزهاوى ؛ من قصيدة طويلة[١] :

وسائلة : هل بعد أن يعبث البلى ... بأجسادنا نحيا طويلا ونرزق ؟[٢]

فقلت مجيباً : إننى لست واثقاً ... بغير الذى حسى له يتحقق[٣]

وهيهات لا ترجى حياة لميت ... إليه البلى فى قبره يتطرق[٤]

تقولين : يفنى الجسم والروح خالد ... فهل بخلود الروح عندك موثق[٥]

---

(١) نشرت فى ٢٢ سبتمبر من سنة ١٩٢٤ بجريدة السياسة اليومية .

(٢) هو إنكار صريح للبعث والنشور .

(٣) لا يؤمن بعقله ولبه : كإيمان الإنسان ، بل يؤمن بلمسه وحسه : كإيمان الحيوان ؛ وما أشبهه بمن قالوا لرسولهم «أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . . . أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه» .

(٤) ومن قبله قال الكافرون «أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون . أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد» لعنهم الله تعالى وأشياعهم إلى يوم القيامة .

(٥) أنكر عدو الله وعدو نفسه خلود الروح ؛ وقد آمن بخلودها سائر الناس : مسلمهم وكافرهم ؛ وأصبحت من الحقائق العلمية الملموسة .

إلى أن قال :

وكم لى من رأى إذا ما بسطته يقولون : زنديق من الدين يمرق[1]
إذا جئت كذباً : فالضمير يلومنى وإن قلت حقاً : فالمخاطب يحنق
لقد كره الجهال كل حقيقة[2] على أنها حسناء بالحب تخلق
خض اللج من بحر الطبيعة سابراً[3] ولا تخش عند الخوض أنك تغرق

وقد نشرت هذه القصيدة فى مصر بالجرائد السيارة ؛ فلم يتصد أحد من الكتاب أو العلماء للرد على هذا الكفر الصريح الفاضح !

وقد رددت عليه بقصيدة من بحر قصيدته وقافيتها ؛ راجياً بها وجه الله تعالى ، ذائداً عن حياض الدين ، مدافعاً عن الكتاب المستقبين !

والزهاوى هذا من كبار الملاحدة — بل ليس فى الملاحدة من يدانيه فى الإلحاد — وله شعر كثير ؛ أنكر فيه صراحة وجود الإله جل شأنه !

فمن ذلك قوله :

لما جهلت من الحقيقة أمرها وأقمت نفسك فى مقام معلل
أثبت رباً تبتغى حلا به للمشكلات ؛ فكان أكبر مشكل

وقوله أيضاً :

قالوا بأن الإله حى له على عرشه ثبوت
فقلت : ما الله غير وهم أثبته الوصف والنعوت
إن حي العلم فى أناس فالله من ذاته يموت

---

(١) نعم زنديق وأى زنديق ، ومارق من الدين وأى مارق !

(٢) سولت له نفسه ، وأوحى إليه شيطانه ؛ أن ما يقوله من إنكار البعث : هو الحقيقة المجردة عن الهوى ، وأن من لم يوافقه على رأيه الفاسد : من الجهال الذين يكرهون الحقائق . اللهم اجعلنا من الجاهلين بهذه الحقائق التى يقول بها ذلك المارق !

(٣) السبر : التأمل والبحث ، وسبر الجرح : تعرف عمقه .

هذا وقد هلك الزهاوى منذ بضع سنين ؛ ورأى الآن جزاءه الحق فى قبره ؛ وعلم أن معرفته تعالى لم تكن من المشكلات ؛ بل آمن به كل الحيوانات والجمادات ! وأنه جل شأنه : حقيقة لا وهم فيها ؛ إلا على من انطمست بصيرته ، واسودت سريرته ! حمانا الله تعالى من الجهل بحقيقته ، بعد عرفانه حق معرفته ! وحفظنا من الزيغ بعد الإيمان ، ووقانا شر النفس ومكائد الشيطان !

وها هى قصيدتى رداً على قصيدته فى إنكار البعث :

حول إنكار البعث[1]

أو قصيدة الزهاوى

« قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة
لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

[قرآن كريم]

إذا طفق[2] التبريح[3] بالقلب يعلق ... فلا عجب للطرف إن كان يأرق
وقائلة : مالى أرى الهم والأسى ... حليفيك هل أمسيت للزهر[4] تعشق ؟
أضنّ بما ترجو خليل ؟ فقلت : لا ... ولكننى من غير ذلك أفرق[5]
أخاف الذى فوق السموات عرشه ... إذا خضت بحر الإثم فالإثم يوبق[6]
فقالت : تعشق كل هيفاء غادة ... ولا يتجنبك الغزال المقرطق[7]

(١) نشرت فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٤ بالسياسة اليومية بعد نشر قصيدة الزهاوى بثمانية أيام .
(٢) طفق يفعل كذا : أى ظل يفعله .
(٣) التبريح : شدة الشوق وتوهجه .
(٤) الزهر : الأنجم المضيئة ، والمراد بها هنا : الغيد الحسان اللاتى يشبهن الأنجم الزهر فى الجمال .
(٥) أفرق : أخاف .
(٦) يوبق : يهلك ؛ لأنه يورد النار .
(٧) المقرطق : ملبوس يشبه القباء ، وهو من لبس الأعاجم .

وحافظ على ذكر الملاح ورققن ... لسيبك فيمن للنسيب يرقق
وغازل ونادم واشربن واطربن ولا ... تضيق فماذا نال منها المضيق ؟
فقلت لها : مثل العروس ينام فى ... حفيرته دهراً إذا النفس تزهق[1]
ويحشر فى حزب الأمانة والنهى ... وأكرم أهل الأرض يوم تشقق[2]
ويسكن جنات النعيم مخلداً ... على حين يصلى النار من كان يفسق
فقالت : أحق أننا بعد موتنا ... وبعد البلى نحيا طويلا ونرزق[3]
فقلت لها : إن كنت أنكرت هذه ... فمثلك من دين المهيمن يمرق
لأنك أنكرت الإله ورسله ... وكتباً أتت بالحشر والنشر تنطق[4]
فقالت : لنا عقل ودينكم لكم ... وللعقل بين الرشد والغى يفرق
فقلت لها : ماذا أرتكم عقولكم ؟ ... فقالت : وجودى بالطبيعة ملصق
بها كان ما قد كان : هل أنت منصف ؟ ... فقلت لها : ما قال هذا موفق
وليس ضميرى يطمئن لباطل ... ولا أنا من ذكر الحقيقة أحنق[5]
لقد رد ذا نوح ، وهود ، وصالح ، ... وموسى ، وعيسى ، والنبى المصدق[6]
وإن رمت منهاج العقول فإننى ... به عارف والباب ما هو مغلق
أتختلف الأشيا بغير إرادة ... تخصص كلا بالذى هو أليق[7]

---

(١) ورد فى الحديث الشريف : أن المؤمن ينام فى قبره مثل العروس .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى «يوم تشقق الأرض عنهم سراعا» . وهو يوم القيامة : عافانا المولى سبحانه فيه ، وجعلنا من خاصة أحبابه !

(٣) هذا هو السؤال الاستنكارى الذى سأله الزهاوى فى قصيدته النجسة .

(٤) ورد ذكر القيامة والبعث فى سائر الكتب السماوية .

(٥) وذلك رداً على قوله «وإن قلت حقاً فالمخاطب يحنق» .

(٦) ورد فى القرآن الكريم ذكر القيامة والبعث والحساب ؛ على لسان هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٧) اختلاف الطعوم والألوان والأشكال والروائح وجميعها «يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل» .

أياطبيعيون اشرحوا لى طبيعة بها كل جسم عندكم يتحقق
فإن تك عين الجسم : كان مقدماً على نفسه إذ فاعل الشىء يسبق
وإن تك جزءاً منه ، أو قوة له على كل حال فالمحال محقق
إذ الجزء : مثل الكل فى سبق نفسه إذن وصفات الشىء للشىء تلحق
فلا عمل من قوة فى محلها لأن به تلك القوى تتعلق
وإن لم تكن من ذا : فما رسمها إذا تجافى عن التحديد عقل ومنطق ؟
على أنكم لا تعرفون سوى الذى إذا ما دعاه الحس لا يتعوق[1]
فقولوا لنا ؛ إذ كانا لجوابكم وشرحكم الشافى غدا يتشوق
أبا اللمس ، أم بالشم ؛ يدرك حالها لكم ، أم بذوق ، أم بالابصار ترمق ؟

هذا وقد تفضل — مشكوراً مأجوراً — المجاهد الإسلامى الكبير ؛ المرحوم الأمير شكيب أرسلان ؛ فأرسل لى — حين اطلع على هاتين القصيدتين بالجرائد السيارة — خطاباً يفوح بعطر الإيمان ؛ الذى كان يحتويه صدره ؛ وشذا الإسلام ؛ الذى كان يشيع من جهاده !

وقد رأيت تكريماً له ، واعترافاً بفضله : أن أنشر هذا الخطاب الكريم بخطه كما ورد :

---

(١) إشارة لقول الزهاوى :

فقلت مجيباً : إنى لست واثقاً بغير الذى حسى له يتحقق

جنيف ١٠ اكتوبر ١٩٣٤

حضرة الشاعر المفلق الحكيم السيد محمد محمد عبد اللطيف

قرأت في "السياسة" قصيدتك في انكار التعطيل فاعجبت بها لفظاً ومعنى وراقني اسلوبها السهل الممتنع وما فيها من حسن التعليل ولطف الجدل بساطع البرهان مع فحولة اللفظ وعذوبته معاً مما يلحق شعرك بشعر الدولتين الذين كانوا يملكون علو المعاني مع قوة العربية فما ملكت نفسي مع وفرة اشغالي أن هنأتك على هذه الملكة النادرة والله يزيدك فصاحة وبلاغة ومضاءً في تنوير الاذهان بحقيقته

شكيب ارسلان

Hôtel d'Angleterre
Genève

أين الله؟

سؤال حائر، على شفاه ساذجة: تنشد الإيمان والمعرفة !

فرفقاً بأبنائنا المؤمنين، الذين يتساءلون: أين الله؟

تظنونهم كفاراً، وما هم بكافرين! وتتوهمونهم ملاحدة، وما هم بملحدين!

عرفوهم بالمنطق السليم ما يريدونه من معرفة الله؛ ضموهم إلى صدوركم ليحسوا بحنانكم، قبل امتحانكم، وبعطفكم، قبل حكمكم!

إن حرمانهم من استماعكم لأقوالهم: سبب لهم عقدة الجحود بآرائكم؛ وزاد كفرهم بربهم!

إن من يقول: أين الله؟ خير بكثير ممن عرف الله؛ ثم أشاح بوجهه، وأدار له ظهره!

فكم رأينا أناساً ينتسبون إلى الإيمان؛ والإيمان منهم براء! ويزعمون محبة الله، والله كاره لهم؛ غير راض عنهم!

ويدعون معرفته؛ وهم أول الكافرين به، المنكرين لوجوده!

أما الذى يقول: أين الله؟ فهو طالب للمعرفة، راغب فى الإيمان!

ولا يعقل بحال، أن يكون القائل: أين الله؟ راغباً فى رؤيته بالذوق والحس؛ وإلا كان عابد وثن وصنم!

لأن المولى سبحانه: يجل عن الرؤية البصرية، ولكنه لا يمتنع عن رؤية العقل، والبصيرة!

فلو توهم إنسان أن الله تعالى: يجب أن يرى بالبصر: لكان جاحداً بمنطق العقل!

ولو رؤى الله بالبصر: لكان مخلوقاً مثلنا، يرى، ويحدد، ويلمس!

وهذا ما لا يقوله إنسان أكرمه الله تعالى بالعقل السليم، والفكر المستقيم!

ولا تنسوا — يرحمكم الله — موسى عليه السلام؛ حين قال «رب أرنى أنظر إليك» فزلزلت الأرض زلزالها، ودكدكت جبالها، وخر السائل صريع سؤاله!

فتعالوا ياأبنائى : أعلمكم أين الله ؟

ها هو الله ! ترونه عياناً : فى بديع صنعه ، ودقيق لظامه !

ها هو الله ! يثبت وجوده فى كل خلق خلقه ، وفى كل رزق رزقه ، وفى كل منح منحه ، وفى كل منع منعه : أعطى بمقدار ، ومنع بتقدير !

وقد يوسع على من يكره ، ويضيق على من يحب ؛ لحكمة يراها جل شأنه ! لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع !

ها هو الله ! نصر من قال : الله أكبر ! وخذل من قال : أنا القوى الأقدر !

ها هو الله ! ترونه فى أنفسكم « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ألا تعلمون كيف جئتم إلى هذه الحياة ؟ ومن أى مادة صنعتم ؟

لقد صنعكم المولى ابتداء من طين ، ثم خلقكم من ماء مهين ، ثم حول هذا الماء إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم جعل هذه المضغة عظاماً . ثم كسا هذه العظام لحماً ، ثم أخرجكم فى هذا الاستواء الخلق الذى أنتم عليه !

وأظنكم ياأبنائى — وأنتم رجال الغد ، وفضلاء المستقبل — أظنكم أعقل وأسما من أن تلجئوا فى مناقشتى إلى ما يلجأ إليه سفهاء الأحلام : من أن أنابيب الاختبار ؛ التى وضع فيها ماء الرجل : قد استجابت مبدئياً إلى الحياة ، التى يصنعها الله !

وهنا يحق لى أن أقول لكم : ومن صنع ماء الرجل الذى وضعتموه فى أنابيب الاختبار ؟

لقد أخذتم البيضة ، ووضعتموها فى الدفء حتى أنتجت دجاجة ، وقلتم : ها نحن خلقنا الدجاجة !

فهل هذه الدجاجة تعتبر من صنعكم ، أم من صنع الخالق جل شأنه ؟

لأن التساؤل الواجب فى الحالتين : من خلق ماء الرجل ؟ ومن خلق البيضة ؟ أترون ياأبنائى — وأنتم العقلاء الألباء — أن كل هذا صنع بغير صانع ، وخلق بغير خالق ؟ وأنها تحولت من عنصر الموت إلى عنصر الحياة بلا موجد ومدبر !

إنى أربأ بعقولكم أن تظن هذا !

أم تقولون كما قال أناس من قبل : إنها الطبيعة وحدها التى صنعت هذا الصنع وأبدعت هذا الإبداع ؟

وهنا يحق لى أن أسألكم : وما هى الطبيعة ؟ إن ما تسمونه الطبيعة ، هو ما نسميه معشر المؤمنين . الله : والله وحده !

والأمثال كثيرة على فساد هذا الزعم وسأكتفى بإيراد مثل واحد ، تقتنعون من خلاله بأن الله وحده ولا شيء بعده !

إن الطبيعة — إذا صح أن هذا صنعها — لا تختار الذكورة والأنوثة ، والجمال والقبح ، والسواد والبياض ، وحسن الخلق وسوأها !

فما تقولون — هداكم الله وعافاكم — فى الشعب الألمانى ؛ بعد الحرب الضروس التى أشعلها واحترق بها !

وقد خرجت ألمانيا من الحرب بفقد جل رجالها ! وزيادة تعداد نسائها : زيادة كثيرة مخيفة !

فماذا فعلت الطبيعة الصماء ، حيال هذا الحادث الجلل ؟

لم تفعل الطبيعة — التى يزعمها الملاحدة — شيئاً ، وما كان لها أن تفعل ، لأنها طبيعة لا تجلب نفعاً ، ولا تدفع ضراً !

ولكن المولى سبحانه : النافع الضار — خالق الكون ومدبره — فعل مايصلح الكون ؛ بعد أن أفسده أهله وذووه !

فترى الإحصاءات الرسمية للمواليد بعد الحرب : قد أثبتت زيادة الذكور على الإناث حتى بلغت ثمانين فى المائة ، وحتى عاد مستوى الذكور متوافقاً مع مستوى الإناث !

وذلك لأن الله تعالى خالق ، والطبيعة لا تخلق ! ورازق ، والطبيعة لا ترزق ! ومدبر ، والطبيعة لا تدبر !

وهكذا تجدون أصبع الرحمن فى كل مكان !

ألا ترون الأشجار ، وما تنتجه من عجيب الثمار ؟ فهذا حلو ، وهذا مر ، وهذا رطب ، وهذا يابس !

الحنظلة : بجوار المانجو ؛ فيثمر هذا ثمراً حلواً بالغ الحلاوة ، ويثمر ذاك ثمراً مرا بالغ المرارة ، وكلاهما يسقى بماء واحد !

وترى الوليد من البهائم : ينزل من بطن أمه فيقف على رجليه ، ثم يستدير إلى أمه فيلتقم ثديها بفمه !

فمن الذى أعلمه أن الرجلين للوقوف ؟ وأن فمه للطعام والشراب ؟ وأن ثدى أمه وعاء لذلك الطعام والشراب ؟!

ألا ترون الهرة ، وما شاكلها من الحيوانات : حين تلد ، فإنها تقطع الحبل السرى لمولودها : بحيث لا تزيد عما يجب ، ولا تنقص !

إن هذه الأمور كلها : تدل على هداية خفية : ليس للطبيعة فيها شأن !

وإنما هو صنع الصانع : الذى أتقن كل شىء ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى !

فاطمئنوا يا أبنائى إلى ربكم ، وثوبوا إلى رشدكم ، واسألوا متى أردتم ! وأنى شئتم : أين الله ؟

فالله معكم : فى حلكم ، وترحالكم . يحفظكم من كيد أنفسكم ، ومن شر الشيطان اللعين !

ولله در سيدى محى الدين بن عربى حيث يقول :

ومن عجب : أنى أحن إليهم وأسأل شوقاً عنهم ؛ وهمو معى !
فتبكيهم عينى ، وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى ؛ وهم بين أضلعى !

الإسراء والمعراج

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، خالق الخلق أجمعين ؛ خلقهم كما يشاء ؛ لما يشاء : ورزقهم ، وهداهم ، وأرشدهم إلى ما يرضيهم ، ووفقهم إلى ما ينجيهم !

والصلاة والسلام — من المولى سبحانه تترى — على أكرم خلق الله ، وأقربهم منه ، وأعرفهم له !

أرسله — عز وجل — هادياً : فهدى ! ومرشداً : فأرشد ! ومبشراً : فبشر ! ومنذراً : فأنذر !

أمده مولاه تعالى بخلق : لم تتوفر لأحد ممن خلق !

ووهبه نوراً إلهياً : لم يهبه لأحد ممن وهب !

وأعلا شأنه بقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » وأى رحمة !

وجعل أفئدة الناس تهوى إليه بقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » وأى قضاء !

وتوجه — جل وعلا — بقوله « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وأى نور !

فاستوجب بحق « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وأى طاعة !

واستحق بصدق « وإنك لعلى خلق عظيم » وأى خلق !

وكان جديراً بخطاب مبدعه له « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وأى رحمة !

نور الله فى أرضه ! ونوره فى سمواته ! ونوره فى قيامته ! ونوره فى جنته ! ونوره فى قلوب عباده !

إذا انقطع هذا النور الربانى المحمدى عن بشر : كفر والعياذ بالله ! وإذا انقطع عن أمة : باءت بالحرمان والخذلان !

أعلى مولاه شأنه فوق كل شأن ! ورفع قدره فوق كل قدر !

فما من مخلوق علا : إلا وهو دونه ! وما من إنسان سما : إلا وهو تحته !

درجة : لا يحلم مخلوق أن يصل إلى أدناها ! ورتبة تتساقط سائر الرتب دونها !

رتب : تسقط الأماني حسرى   وعطاء : حاشاه أن يتناهى !

أعده الله تعالى لما أعده : من سيادة ورئاسة ، لأمر يعلمه المولى سبحانه ؛ ليرتقى بالبشرية الأرضية : إلى سموات الروحانية الربانية !

فكان جديراً بصلاة الله تعالى وملائكته ، وسائر مخلوقاته عليه !

« إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

اللهم صل وسلم وبارك عليه : صلاة وسلاماً دائمين بدوامك ، تنفعنا بفضلهما فى دنيانا ، وتنجينا بفيضهما فى أخرانا ! وتجعلنا فيمن رضيت عنهم يامولاى ورضوا عنك !

الإسراء

أما بعد : فإنه مما لا يشك فيه مسلم — ذاق بقلبه حلاوة الإيمان ، واستمتع بما أودعه الله تعالى فى القرآن — أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه : قد أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ كما جاء فى الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ تنزيل من حكيم حميد ! « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » .

المعراج

أما العروج به : صلى الله تعالى عليه وسلم إلى السموات العلى : فإن الإنسان المسلم : يحس فى قرارة نفسه بصحته ، ويؤيده تمام التأييد بقلبه !

فإذا ما قرأ الأحاديث الواردة فيه : أحسَّ بالوحشة تكتنفه ، وبالانقباض الفكرى يتملكه !

ولم تكن تلك الوحشة ، وذلك الانقباض من صعوده عليه الصلاة والسلام إلى السموات ! فهو جدير به ، وقمين بنيله !

ولكن هذه الأحاديث — كما سترونها — مليئة بالترهات ، مفعمة بالأباطيل والأضاليل !

قدر الرسول صلى الله عليه وسلم

فالرسول عليه الصلاة والسلام : لن ينقص قدره : عدم عروجه إلى السماء ، كما أن عروجه إليها : لن يزيده رفعة فوق رفعته ؛ التى لم تدع زيادة لمستزيد !

وأى رفعة أعظم من مدح مولاه له فى القرآن الكريم « وإنك لعلى خلق عظيم » !

وأى فضل أكبر من تفضيله على سائر المخلوقين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » !

ومن المعلوم يقيناً : أن سائر الأنبياء من العالمين ! وسائر الملائكة أيضاً من العالمين !

وذلك لأن « العالمين » جمع العالم . والعالم : كل ما سوى المولى سبحانه وتعالى .

وما أرسل عليه الصلاة والسلام — كنص الآية الكريمة — إلا رحمة لهم وبهم جميعاً !

فلم يقل المولى سبحانه : إنه أفضل المخلوقات ، أو أكرمها ؛ أو أشرفها ؛ بل قال : إنى لم أرسله إلا رحمة لها !

وبذلك يكون محمد عليه الصلاة والسلام : أفضل المخلوقات على الإطلاق : إنس ، وجن ، وملك !

فتعالى من رحمنا به ، وأعزنا برسالته ، وأكرمنا بشفاعته !

وبما قدمناه : ينقطع قول من ادعى أن جبريل أفضل من محمد . عليهما الصلاة والسلام ؛ كما قالت المعتزلة وغيرهم : عفا الله تعالى عنا وعنهم !

ولنعد إلى ما بدأناه من الكلام فى الأحاديث التى تناولت المعراج .

وقد قلنا : أحاديث — وهو حديث واحد — لما ورد فيه من روايات : يتباين كل منها مع باقيها ؛ تبايناً كلياً .

لكنها تجمع على أشياء كثيرة : منها تفاهة المعنى والأسلوب ؛ وبعد منطوقها عن منطق النبوة الرائع المبدع المنير ! وبعد مفهومها عما اصطلح عليه سائر المسلمين : من عدم وقوع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى الزلل ؛ بالقول ؛ أو الفعل ؛ اللذين يحطان من أقدارهم : كما حواه هذا الحديث الغريب ؛ من منكر القول ، وفاسد الأخلاق والعقائد !

زيف هذه الأحاديث

وقد اجتمع فى هـذه الأحاديث ـ رغم كثرتها ـ شىء واحد : هو صياغتها على ما هى عليه .

فحينما تتلو أحدها : تذكر أن هذه الصياغة ليست بغريبة عنك ، ولا بعيدة منك .

فهذه الصياغة ، وهذه اللهجة : هما نفسهما اللذان صيغت بهما آيات التوراة والإنجيل ؛ اللذين أجمع على تحريفهما وتبديلهما كل من فهم ومن لم يفهم ، ومن علم ومن لم يعلم ؛ حتى صارا علمين لكل ما يتصف بالتحريف والتبديل ، وصارا مثـــلا يضرب لكل فساد وإفساد !

وجوب تبجيل المولى سبحانه !

ومخترعوا هـذه الأحاديث : إنما أرادوا بها تعظيم شأن الرسول ؛ عظيم الشأن ! وإعلاء قدره ؛ عالى القدر !

ولم يبالوا بما نزلوا به من مرتبة المولى عز وجل !

فالرسول عليه الصلاة والسلام : واجب التكريم بنص القرآن الكريم ؛ وإغفال خالقه تعالى ؛ ومرسله عز وجل : من التبجيل والتكريم ؛ الواجبين له : هو فى نظرى : انحراف عن الجادة ، وعدول عن الصراط المستقيم !

فترى كثيراً من المسلمين : إذا ذكر الرسـول صلوات الله تعالى وسلامه عليه قولا ، أو كتابة : بادروا بالصلاة والسلام عليه ؛ وهو أمر واجب على كل من يدين بدين الإســـلام !

فإذا ذكر المولى سبحانه : الذى تفضل علينا بالرســـول الذى نصلى عليه : أشاحوا بوجوههم ، وخرست ألسنتهم !

أقول : خرست ؛ لأن الذى يقصر فى تبجيل مولاه : مستحق للخرس !

وقد يقول قائل ساذج الفهم ، تافه الإدراك : إن تكريم الرسول عليه الصلاة والسلام واجب بنص القرآن ؛ حيث لم يوجب علينا تكريم المولى سبحانه بنص صريح !

ونحن لا نحتاج إلى أدنى عناء للرد على مثل هذا القائل الضعيف الوجدان ، السقيم العقيدة !

فالمولى سبحانه — ولو أنه غنى عن التكريم — قد كرم نفسه بنفسه ، ليعلمنا واجب تكريمه وتعظيمه !

فقد كرر فى كتابه العزيز لفظ « سبحانه » ١٤ مرة ، و« سبحان » ١٨ مرة . والأمر بالتسبيح « سبح ، سبحه ، سبحوا ، سبحوه » ١٨ مرة . وذكر من يسبح له « يسبح ، يسبحن ، يسبحون ، يسبحونه » ١٥ مرة ، ولفظ « تعالى » ١٤ مرة : و « تبارك » ٩ مرات!

ويكفيك قول العزيز المتعال « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » وقوله جل شأنه « وسبحوه بكرة وأصيلا » أى صبحاً ومساء ، وفى كل وقت !

وهذا هو واجب المؤمن حيال ربه : الذى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » و « ليس كمثله شىء » و « خالق كل شىء » و« وسع علمه كل شىء » و « بيده ملكوت كل شىء » !

العودة إلى حديث المعراج

ولنعد إلى ما نحن بصدده ؛ وهو حديث المعراج : الذى أعلم علم اليقين : أن ما أكتبه فيه : سيثير علىّ حرباً عواناً ؛ لا هوادة فيها ، وسيقول بعضهم عنى : كافر ، فاسق ، زنديق، ملحد ؟ ! ... الخ ما فى القواميس من قذف وسباب !

ولكنى وايم الله : مشفق عليهم ، رؤف بهم ؛ طالب المغفرة لهم مقدماً !

وأقسم غير حانث ولا آثم : أنى ما كتبت إلا ما اعتقد أن رضا المولى سبحانه فيه ، وأنه تعالى سيثيبنى عليه !

فليشفق اللائم على من هذا شأنه . وليتحرّ الناقد مرضات ربه : كما تحريت ؛ وليفهم أن كل كلمة يكتبها أو ينطق بها : فهى له أو عليه ! « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

هذا وقد كنت منذ نعومة أظفارى : إذا سمعت حديث المعراج — كما يرويه الراوون ، وينقله الناقلون — أحس فى صدرى بما يثقله ، وفى عقلى بما ينوء بفهمه !

بطلان بعض الأحاديث

وإذا سمعت أيضاً حديث « خلقت وآدم بين الطين والماء » وحديث أئمة القوم « لولاه لما خلقت الأرض والسماء ، ولما انشقت الأنهار ، ولما أظلم ليل وأضاء نهار ! وأن اسمه صلوات الله تعالى وسلامه عليه مكتوب من نور على ساق عرش الرحمن ! » . . . الخ ما يروونه : إشادة بمن أشاد به الله ، ورفعة لمن رفعه الله !

تعالى الله عن أن يشركه أحد فى ملكه ، أو أن يكون سبباً فى خلقة ما خلق ، وذرأ وبرأ !

فالمولى سبحانه : خلق خلقه بإرادته وحده ؛ من غير مثال سبقه ! وأعدهم لتلقى أوامره ونواهيه عن طريق أنبيائه ورسله ؛ الذين بعثهم ؛ لتنقطع بهم الحجة ، وتسقط المعذرة !

ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم : إمامهم جميعاً ، وخاتمهم ، وسيد الخلق على الإطلاق !

فكل من أراد أن يسمو به فوق هذا السمو : مخطىء ! وكل من أراد أن يعلو به فوق هذا العلو : واهم !

فإذا ما أردنا أن نضع الحقائق فى مواضعها ، وأن نخضع المفاهيم إلى مقاييس الفهم الصحيح ، ونزنها بالميزان الراجح ؛ الذى وهبنا إياه المولى سبحانه ، والذى يحاسبنا بمقتضاه ، ويؤاخذنا بما أفصح عنه ذلك الميزان الربانى : وهو العقل !

وجب علينا : أن نعرض عليه كل ما يعرض لنا فى هذه الحياة : من معقول ، أو منقول : بشريطة ألا نترك لإبليس العنان : فيتدخل فيما بيننا وبين الرحمن !

فإذا ما قلنا : إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خلق — خلقة حقيقية — قبل خلق آدم : فمن الذى ولدته آمنة ؛ من ظهر عبد الله ؟ ومن الذى شق قلبه ؛ كما يقولون ؟

وإذا قلنا : إنه قد خلق قبل آدم فى علم الله تعالى فحسب : قلنا أيضاً : إننا جميعاً قد خلقنا قبل آدم فى علم الله ؛ فلم يعد لهذا الحديث معنى .

وإذا قلنا : لم يعد له معنى ؛ وجب علينا أن ننفى نسبته إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ الذى لا ينطق عن الهوى !

وأى فخر لمن يخلق أولا ؟ اللهم سوى الإرهاص لما يريده المزيفون من إثبات

ما يريدون إثباته للرســـول الكريم من أشياء لا تعلى قدره الذى أعلاه ربه : بقربه ، وحبه ، واصطفائه !

وها هو إبليس اللعين : وقد خلق قبل الخلق أجمعين ؛ فما زاده ذلك سوى لعناً ، وطرداً ، وبؤساً وبخساً !

أما القول بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم : لولاه لما خلقت الأملاك والأفلاك ، وأن اسمه مكتوب على ساق العرش . . . الخ فهو رغم ما فيه من اختلاق وإفك ظاهرين : باطل بطلاناً واضحاً لا شبهة فيه ! فإنا لم نشاهد فى حياتنا الدنيا ملكا كتب اسم رئيس وزرائه ، أو كبير أمنائه على كرسيه ، أو على عرشه ! ولو كان هذا الرئيس ، أو كان هذا الكبير : متسبباً فى تولية هذا الملك على ملكه !

هذا فى حين أن الملك ، ورئيس وزرائه ، وكبير أمنائه : بشر ؛ من طينة واحدة ، وأصل واحد .

فكيف نجرؤ أن نقول بكتابة اسم محمد على ساق عرش الرحمن ؛ وهو انسان ، وهذا هو الخالق الديان ؟!

فبئس القول ما قيل ! وبئس هذا التصوّر العقيم السقيم !

وهذا القول نفسه : يؤثم من يدعيه ؛ بل ويقربه من الكفر ، ويغمسه فيه !

ومن هنا : كان بدء غلو المادحين للرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه (وهو خير الممدوحين ، وأولى الناس بالمدح) .

فقال بعضهم ؛ مشطراً لأبيات من همزية الإمام البوصيرى :

بابن عمران شرفت سيناء ولإدريس والمسيح السماء

ولك العرش موطىء ووطاء كيف ترقى رقيك الأنبياء

ياسماء ما طاولتها سماء

فانتقلنا بذلك من كتابة اسمه على العرش : إلى أن وطىء محمد العرش بقدميه !

عرش الديان ؛ المعد لاستواء الرحمن : يكون موطئاً ووطاء لقدم أحد مخلوقاته ؛ ولو أنه خيرهم ، وسيدهم ، وإمامهم !

العرش : الذى يمثل عظمة السلطان ، وسلطان الرحمن : يطؤه واحد من بنى الإنسان !

وجميع ذلك : لا يجوز عقلا ، ولا ذوقاً ، ولا ديناً ، ولا يحتمله عاقل ، ولا مجنون !

اللهم إلا إذا آمنا بأن لله تعالى شريكا فى ملكه ! وهذا الشريك : غير مماثل لشريكه ؛ بل مفتون عابث ، متعال عليه ، يطأ عرشه برجله !

تعالى المولى عن ذلك علواً كبيراً ! وتعالى الرسول أن يكون كما قيل !

فليس هناك سبب لما خلق الله سبحانه : سوى أنه تعالى كان كنزاً مخفياً ؛ فأراد أن يعرف : فخلق الخلق ؛ فبه تعالى عرفوه ، وبه عبدوه !

جل شأن المولى سبحانه ! وصلى وسلم على نبيه المختار : صلاة نتعبد بها له ، ونتقرب بها إليه !

وجوب تحرى الأحاديث

هذا وقد ورد عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه أنه قال : « إذا سمعتم الحديث عنى : تعرفه قلوبكم[1] ؛ وتلين له أشعاركم وأبشاركم[2] ، وترون أنه قريب منكم[3] ؛ فأنا أولاكم به . وإذا سمعتم الحديث عنى : تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ؛ وترونه بعيداً منكم : فأنا أبعدكم منه ! » .

فإذا ما سمعنا — مثلا — فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت « جاءت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فقالت : يارسول الله إنى أرى فى وجه أبى حذيفة[4] من دخول سالم — وهو حليفه[5] — فقال لها : أرضعى سالما خمساً : تحرمى بها عليه » .

هل يجوز لعاقل يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ بعد أن قرأ قوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » أن يصدق هذا الحديث ، أو أن يعيره بالاً ؟!

---

(١) تعرفه قلوبكم : أى تطمئن إليه ، ولا تنكر معناه .

(٢) الأبشار : جمع بشرة ؛ وهى ظاهر جلد الإنسان .

(٣) قريب منكم : أى لأفهامكم ، وأذواقكم ، وآدابكم .

(٤) أى أرى فى وجهه من الكدر والغيرة ؛ لدخول أجنبي على امرأته .

(٥) المراد به : شريكه فى التجارة .

ولـكن رواية هذا الحديث فى المسانيد معنعناً مطولا : دعت كثيراً من الفقهاء إلى تصديقه وبحثه ، والأخذ منه بجواز إرضاع الكبير !

فهل هذا الحديث : قريب منا ! أم بعيد عنا ؟ تعرفه قلوبنا ؛ أم تنكره أشد الإنكار ؟ لانت له أبشارنا وأشعارنا ؛ أم اقشعرت وجمدت ؟!

ولنفرض أن هـذه المرأة : أتت لأحدنا ، وشكت له ما شكت للرسـول عليه الصلاة والسلام ؛ أكان يقول لها : أرضعيه ، أم كان يقول لها : احتجبى عنه !؟

وأى الجوابين أولى وأصح : قول الرسول الأعظم ؛ الذى كان كل فعله وقوله : تشريع. أم قول مخلوق مغمور من أمثالنا ؟!

وهكذا أحاديث كثيرة : اتصفت بهذه الصفات ، واتسمت بهذه السمات !

منها — على سبيل المثال لا الحصر — وقوع يوسف فى الخطيئة ؛ حين هم بامرأة العزيز ! وقصة زينب بنت جحش ؛ وما اكتنفها من أكاذيب وأضاليـل ؛ بلغت حـداً لا يرضى عامة الناس ودهماؤهم : أن ينسب إليهم !

وقد أرادوا بأحاديث أم المؤمنين زينب بنت جحش ؛ أن يصوروا محمداً : عظيما فى كل شىء ؛ عظيما حتى فى شهوات الدنيا ؛ التى ذمها المولى سبحانه فى كتابه !

وقد أخطأ الدكتور هيكل ؛ حيث يقول فى كتابه (حياة محمد) إن القوانين التى تجرى على الناس : لا سلطان لها على العظماء ؛ فأولى ألا يـكون لهـا سلطان على المرسلين والأنبياء !

وهو قول خاطىء — جملة وتفصيلا — فى ظاهره وباطنه ؛ فان الأنبياء والرســل صلوات الله تعالى وسـلامه عليهم : جاءونا من لدن المولى سبحانه بأوامر واجبة الطاعة ! وذلك لبعدها عن الجور ، وعن الانحراف !

فإذا ما زعم زاعم — كافر بالله ، وبكرامة رسله — أن أحد هؤلاء الأنبياء قد حاد عن المثل العليا : جاز — طبعا — لمتبعيه أن يخرجوا عن طاعته ، ويكفروا برسالته !

فإذا قيل : إن أحدهم ؛ بل كبيرهم : نظر الى امرأة واحد منهم ؛ فهويها ! حق لنا أن نقول : إن مثل هذا لا يصلح للرسالة التى اختصه المولى سبحانه بها ، وائتمنه عليها ! ولا يصلح للزعامة التى بوأه الله تعـالى إياها ! وإلا جاز لنا أن نقتدى به ، ولنسير على هديه !

وهو — كما ترون — هدى فاسد : أقرب إلى الشيوعية الملحدة البغيضة : من الإسلام القيم ، المنير ، المحبوب !

وقصة داود : إذ رأى امرأة عريانة ؛ فوقر حبها فى قلبه ، فأرسل زوجها للجهاد : ليقتل ؛ فرجع منصوراً مأجوراً ! فأعاده للحرب ثانية ، وثالثة حتى قتل ؛ وتزوج امرأته !

وقصة سليمان : إذ طفق يقطع أعناق الخيل وسوقها ؛ وقد كانت معدة للجهاد !

وأمثال ذلك : يضيق المقام عن حصره !

ذيوع هـــذه الاحاديث

وكل ذلك : وارد فى صحاح الصحاح ؛ بشتى الروايات ، ومختلف الألفاظ .

وقد بلغ من ثبوت هذه القصص لديهم : أن وردت فى شتى التفاسير ؛ كبيرها وصغيرها !

وقد بلغ من ذيوعها وشيوعها : أن أورد الطبرى — وهو من أئمة المفسرين ؛ بل إمامهم جميعاً — عشرات الروايات ؛ بطرق عدة !

وقد رووا فى بعض هــذه الأحاديث الفاسدة أن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ عند ما قرأ قوله تعالى « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » قال : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى !

واستدلوا على ذلك القول الفاسد السقيم ؛ بقول العزيز الحكيم « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » وأولوا التمنى : بالقراءة ؛ فتعساً لهم وسحقاً !

فانظر — رحمك الله — إلى أى مدى بلغ بهم الفسق ، والكفر ، والضلال !

وحديث الغرانيق : ذائع فى كتب التفسير ؛ ذيوع الشهادتين ! رغم أنه ظاهر البطلان ، مكفر لمن يعتقده ! وقد أيدوا صحته بقوله تعالى « لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » مع أن ذلك الركون : فوق الكثير بكثير !

ولا يجوز مطلقاً أن ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام النطق بالهجر ؛ فكيف بالكفر !

وقد ذهب قتادة إلى أن الرسول : تلاه ناعساً !

وقال ابن عباس : إن شيطاناً يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى صورة جبريل ؛ وألقى فى قراءة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى .

وقد زعموا أن الرسول المعصوم المبرأ قال بعد أن قال ما قال « افتريت على ربى وقلت مالم يقل » . ما شاء الله ! الرسول : ينعس عند التبليغ ، ويفترى على الله !

وزعمو أيضاً أنها من القرآن ؛ ونسخت بقوله تعالى « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » .

ولا ندرى : كيف ينطق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ بما نطق بعد أن حشى قلبه الشريف ؛ الذى ينبض ، وحشيت عروق حلقه — التى ينطق بها — بالحكمة والإيمان ؟ !

هذا وان ما قلناه فى هذا الصدد : دون القليل ؛ ولو شئنا لجئنا بما يملأ المجلدات الضخام .

ولو سكت المسلمون على هذا القذى ، وارتضوا بهذا الأذى ! الذى اختلقه اليهود الملاعين ، ودسه غلاة المنافقين : لأصبح ديننا الطاهر ؛ كسائر الأديان الفاسدة المتداعية ! وهى ليست منا ببعيد !

(وإن أردت المزيد : فانظر كتابنا أوضح التفاسير ؛ عند تأويل هذه الآيات) .

وان يضير أئمة الحديث — كالبخارى ، ومسلم ، وغيرهما — ولا ينتقص من أقدارهم : تسرب بضع أحاديث منكرة ؛ فى هذا الخضم الزاخر بالصحة ، والجودة ، وأمانة النقل ، والإخلاص للعلم ، ولله ولرسوله !

الدس فى الحديث وغيره

وكيف لا يجوز الدس على مثل البخارى — رغم خطره ، وعلو قدره — وقد دس على الرسول نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم : ذراع شاة مسمومة ؛ فأكل منها !

فكان صلى الله تعالى عليه وسلم : مصدقاً لمن قدم له الذراع ، وكان البخارى رضى الله تعالى عنه : مصدقاً لمن قدم له الحديث !

وقد اشتهر — من قديم الزمان — واضعوا الأحاديث ، ومزيفوها ؛ فلم يدعوا شيئاً إلا وولغوا فيه !

حق الإثفار (وهو إتيان المرأة فى دبرها) وجدوا له ما يؤيده ويبرره ؛ رغم فحش مرتكبه ، وبعده عن الإسلام !

كتمان الحق : إثم

وقد يوافقنى كثير من المسلمين على ما أقول ؛ غير أن جبناً راودهم ، وتردداً خالطهم ؛ عن أن يجهروا بكلمة حق : قد تقربهم من خالقهم ؛ غير أنها قد تباعد بينهم وبين المخلوقين !

ومما يؤسف له أشد الأسف : أن هذا صار شأن كثير من فضلاء الأمة : الذين أضاع فضلهم جبنهم ، وتخليهم عن قول ما يعتقدونه حقاً : قولا صريحاً مدوياً ، كشأن المؤمن الصادق الإيمان !

ولن يبتلى الإسلام بشر ممن يكتم ما يعلم : خشية ضجيج الجهال ، ونعيق الغربان ، ونقيق الضفادع !

من حق كل مسلم أن يجهر برأيه : نفياً أو إثباتاً

فلا حرج على مثلى أن يجاهر بما يعتقده ؛ ومن حق كل مسلم — يغار على دينه — أن يقول لى : قد أخطأت ، وجانبك الصواب ! ولا إثم على فيما قلت ، ولا إثم عليه فيما قال ؛ لأن كلانا ينشد الحقيقة المطلقة ، وكلانا يبتغى رضاء المولى سبحانه ؛ فى كل ما يقول أو يدع !

هذا : ومسألة العروج بالرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه إلى السماء ، والتقائه بمولاه : رب العزة سبحانه وتعالى ! مسألة ذات شطرين : أولاهما — مسألة العروج نفسه ؛ وهل كان بروحه فحسب ؛ أم بروحه وجسده معاً ؟ وقد رجح الأكثرون الرأى الثانى (كما أوضحنا ذلك فى أوضح التفاسير) .

ثانيهما — الأحاديث الواردة فى ذلك ، ومبلغ مجافاتها للعقل والذوق ، ومخالفتها لأبسط قواعد الإجلال والتقديس الواجبين لذات المولى سبحانه وتعالى ؛ ولرسوله عليه الصلاة والسلام !

نتيجة أحاديث المعراج

فإذا ما بحثنا الأحاديث الواردة فى الإسراء والمعراج : اصطدمنا بخضم عجاج ، متلاطم الأمواج ؛ وبحر لاغور له ولا ساحل ؛ من روايات شتى ، متلاحقة متباينة ، وكلها يدور

فى محور واحد ؛ نخرج منه بنتيجة واحدة ؛ لا مناص منها ، ولا محيد عنها : وهى الرفع من شأن موسى ، والحط من قدر محمد ! والرفع من شأن محمد ، والحط من قدر جبريل !

بل نخرج بالحط من أقدارهم جميعاً !

موسى عليه السلام

فموسى — وهو من خيرة أنبياء الله تعالى — يتفوه بما لا يصح أن يتفوه به أوساط الناس وعامتهم ، ويخاطب مولاه تعالى بالصياح والضجيج !

محمد صلى الله تعالى عليه وسلم

ومحمد — وقد بعثه الله تعالى رحمة للعالمين — يصير كالدمية فى يد موسى ؛ يحركه كيف شاء ، ويكون مرشداً له ؛ فيأمره بالصعود والهبوط ، لمراجعة ربه سبحانه وتعالى تسع مرات ؛ فلا يخالف له أمراً ، ولا يعصى له إشارة !

وبذلك يعارض محمد ربه جل وعلا ، ويراجعه ؛ بما لا يصح أن يعارض به ، أو يراجع عبد سيده ؛ وهما صنوان ، من بنى الإنسان ؛ فما بالك بالإنسان والرحمن !؟

جبريل عليه السلام

وجبريل — وهو أمين الله تعالى على وحيه ، وكبير ملائكته ، ورسوله إلى رسله — لا يدخل السموات — التى هى مستقره ومقامه — إلا بإذن ، وقرع للأبواب ، وتنكر له ، وتجاهل لمركزه وصفاته ؛ ممن هم دونه من الملائكة !

المولى جل وعلا : لا يراجع

والمولى سبحانه وتعالى — وهو رب العزة ، وبارئ النسم ، ومنشىء الخلق من العدم ، وخالق الكل ، ورازقهم ، وراحمهم : يأمر مخلوقاته بما لا يطاق تحمله ، وهو القائل : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . . لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .

ويراجعه واحد من مخلوقاته فيما أمر : مرات عديدة ؛ وهو الذى لا يرد له أمر ، ولا معقب لما يريد « والله يحكم لا معقب لحكمه . . ، ما يبدل القول لدى » .

ولسنا فى هذه الحال : حيال شخصين متشابهين : يفضل أحدهما الآخر ؛ بل نحن حيال خالق ومخلوق ، وعابد ومعبود ، وإله وإنسان !

ليست بينهما مشاكلة أو مقارنة : اللهم سوى علاقة عبد بسيده الأعلى ؛ وذلك العبد : يفخر بعبوديته ، ويباهى بها !

إذاعة حديث المعراج بالتليفزيون

هذا وقد فوجئت أخيراً فى رمضان هذا العام (١٣٩٣ هـ) فى التليفزيون المصرى ؛ بأحد العلماء الأعلام : فضيلة الشيخ « محمد متولى الشعراوى » .

وهو من خاصة من عرفت ، وممن أقدر فضلهم ، وعلمهم ، ودينهم ! فوجئت به يتكلم فى موضوع المعراج : بتوسع ، وإسهاب ، وطلاقة ؛ بل وبتأثر وتأثير روحى بالغين !

حسن سمت ، وطلاقة لسان ، وسعة علم ، ودقة فهم ! وكنت به معجباً أشد العجب ؛ حتى أنى كثيراً ما بكيت عند استماعى إليه ؛ وبالأحرى عند استماعى لذكر سيدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ! ولو كنت لا أقر ما أسمعه !

ولكن العاطفة : لا تغنى عن بحث الحقائق مجردة من الدوافع : لتوضع الأمور فى مواضعها ؛ خصوصاً ما يتعلق منها بكرامة الدين ، وما يمس حرمة الأنبياء والمرسلين !

ولكنى ما إن استمعت إليه : إلا وأدركنى — رغم بكائى — من الغثيان ما يدركنى دائماً حين أستمع لأمثال هذه الأحاديث : التى أعتبرها سبة للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لا مدحاً له ! ونقصاً فى الدين لا إعلاء لشأنه ! وحطماً لقواعد الذوق والأدب ؛ لا إرساءاً لها !

وقد ذكرت ذلك لأعز صديق ، وأحب ابن : الأستاذ الدكتور محمد عمر زبير : عميد كلية الاقتصاد ، وأمين جامعة الملك عبد العزيز (وهو صديق صدوق للأستاذ الشيخ محمد متولى الشعراوى) فرأيته — للأسف — مؤيداً لما سمعه منه . وهو فى ذلك معذور عذر الآلاف المؤلفة من صالحى هذه الأمة ! الذين يعقلون أنفسهم بعقال غيرهم ، ويتقيدون بقيود من الأوهام !

نقض حديث المعراج

وقد دعانى كل ذلك إلى أن أدلى بما أراه صواباً : أثاب عليه ! فإن أصبت : فالحمد لمن وهبنى الإصابة ! وإن أخطأت : فليأجرنى الله سبحانه بقدر إخلاصى له ، وتمسكى بدينه ، وحبى لرسوله !

ورجائى السلامة من سخطه ، والطمع فى عفوه ومغفرته !

ومن رأى صواباً غير الذى قلته : فليردنى إليه ؛ وهو فى ذلك مشكور مأجور !

وإنى أعد من يفند رأيى ، أن أنشره له : أمانة للعلم ، وبراءة من الجهل ! وأن ألتزم برأيه ؛ إذا هدانى الهادى له ، ووفقنى إلى قبوله !

ولنبدأ الآن — بعون من المولى سبحانه — فى ردّ هذه الأحاديث ، وإثبات ما رأيناه باطلا فيها !

ونحن إذا ما تكلمنا فيها : فليس هذا بمنتقص من أقدار أناس : وقفوا أنفسهم ، وقضوا حياتهم فى حب الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستقصاء أحاديثه الكريمة من مظانها ومنابعها ، وأحسنوا ترتيبها وتأويلها ؛ مخلصين فى ذلك كل الإخلاص ، متعبدين به أسمى التعبد ؛ طالبين من الله مولاهم الحق : الرضا عنهم بما قاموا به . وإحلالهم مستقر رحمته بما صنعوا !

وليس بمنتقص من قدر البخارى ، أو مسلم رضى الله تعالى عنهما : بطلان بضع أحاديث وردت فى صحيحيهما الحاويين لعشرات الآلاف من الأحاديث البالغة قمة الصحة ، وقنة الفضل والجودة !

وقد وعد المولى سبحانه بحفظ كتابه ، ولم يعدنا بحفظ كتب الصحاح من أحاديث رسوله ! والخطأ : جائز على كل مخلوق : عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام !

فمن ادعى أن إنساناً ما — من غيرهم — لم يخطىء : لزمته الحجة ؛ وكان هو المخطىء فى تصوره هذا !

والقرآن — الكريم — وقد وعد المولى سبحانه بحفظه — يجب تطويع العقول له ؛ لا تطويعه للعقول ! أما ما عداه : فيجب أن نأخذه بشريطة موافقته للعقل ، والعرف ، والدين ، والأخلاق .

قواعد مناقشة هذا الحديث

وعلينا — قبل أن نناقش أحاديث المعراج — أن نضع أمامنا قواعد راسخة ، وأسساً ثابتة ، سداها ولحمتها : الأحاديث الصحيحة المعقولة المقبولة ، وآيات الكتاب العزيز الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ،

فقد قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ حينما سأله بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم : هل رأيت ربك ؟ قال عليه الصلاة والسلام « ذلك نور أنى أراه » ، أى كيف أراه !

وقول عائشة رضى الله تعالى عنها « من قال : إن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية » . ثم قرأت « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

وقول المولى سبحانه « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » .

فهذه هى الصور الثلاث : التى لا يكلم المولى سبحانه بشراً إلا فى حدودها !

وتقييد الآية بالبشرية « ما كان لبشر » ولم يقل : ما كان لأحد ، أو ما كان لمخلوق .

هذا التقييد : يحتمل تكليم المولى جل وعلا لغير البشر : كالملائكة المقربين مثلا ؛ الذين هم ليسوا من البشر .

وقربهم من الله عز وجل ، وتلقيهم لأوامره مباشرة : قد يقتضى مكالمتهم بغير هذه الصور الثلاث وقيودها .

وهذه الأسس التى ذكرت فى الآية الكريمة ؛ والأحاديث الصادقة ؛ التى ذكرناها : لايستطيع مسلم — مهما كابر — أن يخرج عن منطوقها ، ولا مفهومها ، ولا إطارها العام .

وذلك لأن هذه الأحاديث الصحيحة — بمدلولها ومعناها — قد أجمعت ، وتواترت على عدم رؤية الرسول الكريم ؛ لمولاه العظيم « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

وقد جاءت الآية الكريمة بما يقطع كل شك وريب : إذ أوضحت أنه لا يجوز ، ولا يصح : ولا يعقل ؛ أن يكلم الله بشراً ؛ إلا فى حدود الاستثناء الذى أوردته الآية :

إلا وحياً : أى إلهاماً ؛ فى يقظة ، أو منام ، لأن من معانى « الوحى » لغة : الإلهام والكلام الخفى .

« وحياً » كوحيه تعالى لأم موسى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

وكوحيه جل شأنه للنحل « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » .

وكوحيه سبحانه وتعالى للخضر عليه السلام : بقتل الغلام ، وخرق السفينة ، وإقامة الجدار « وما فعلته عن أمرى » .

ومناما : كوحيه تعالى إلى إبراهيم ؛ حيث قال لولده إسمعيل عليهما السلام « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال ياأبت افعل ما تؤمر » .

ومن يوحى إليه فى المنام يسمى بالمحدث — بفتح الدال المشددة — وقد رووا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أنه قرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث » وهى قراءة شاذة : لعدم ورودها فى المصحف الإمام .

وقد ذهب الإمام الشوكانى إلى أن المحدث : هو الصادق الظن ، المصيب الفراسة . وذلك تأويلا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام « إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد منهم : فعمر منهم » وذلك لأن عمر رضى الله تعالى عنه : قد جاء القرآن والوحى موافقاً لقوله فى كثير من الأحيان : مثل اتخاذ الحجاب ، والأسرى ، والآذان ، وغير ذلك ؛ مما هو معروف .

أو من وراء حجاب : بظهور صوت كريم ؛ لإله عظيم ! لا يتصف هذا الصوت بصفة من صفات أصوات المخلوقين : ارتفاع ، أو انخفاض ، أو نعومة ، أو خشونة ، أو جهورة . بل صوت : يسمع ويفهم فحسب !

كتكليمه تعالى لموسى عليه السلام ؛ عند الشجرة ، وتكليمه جل شأنه لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ليلة المعراج ، عند فرض الصلاة .

أو يرسل رسولا : يرسل المولى عز وجل خيرة ملائكته : جبريل عليه السلام ؛ لخيرة خلقه : الأنبياء جميعاً عليهم السلام ، وإمامهم وخاتمهم : محمد صلى الله تعالى عليه وسلم !

فإذا سرنا فى مناقشة أحاديث العروج ؛ على ضوء ما قدمناه : ثبت لنا بما لا يقبل أدنى شك : أن الرسول الكريم ؛ صلوات الله تعالى وسلامه عليه قد كلمه مولاه ؛ كما كلم موسى : صوت كريم ، بلا رؤية ، ونور بلا مصباح !

وفرض عليه وعلى أمته الصلاة ؛ كما فرض على موسى وأمته : ما فرض فى الألواح التى أنزلت إليه .

كيف يكون محمد كموسى ؟

بقى اعتراض واحد : يجوس فى خاطرى ؛ قبل أن يجوس فى خواطر الآخرين ؛ وهو : كيف يكون محمد — وهو من هو : مكانة ، وقدراً ، وسمواً — فى صف واحد مع موسى ؟!

وكيف يكون محمد : الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ؛ كواحد من العالمين ؟

ولم أجد فى نفسى عناء فى الإجابة على هذا الاعتراض الجدلى !

فشتان بين من تجرأ ؛ فطلب رؤية ربه «رب أرنى أنظر إليك» واحتاج — فى إقناعه — إلى دكدكة الجبل «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً» .

شتان بينه ، وبين من طلب إلى السموات العلى ، فلم يرن بطرفه إلى ما جال بخاطره ، ولم يطلب من مولاه مستحيلا !

وشتان بين من كلمه ربه فى أرضه ، ومن كلمه سبحانه وتعالى فوق سمواته !

وشتان بين من خاطبه المولى سبحانه بقوله «ولتصنع على عينى» ومن خاطبه الكريم بقوله «فإنك بأعيننا» .

العودة إلى أحاديث المعراج

ولنعد بعد ذلك إلى مناقشة ما جاء فى هذه الأحاديث ؛ وهى كثر : يضيق المقام عن ذكر بعضها ؛ وقد أصبحت محفوظة عن ظهر قلب للخاص والعام ؛ فلا داعى لذكرها ؛ مكتفين بذكر ما تناولته اعتراضاتنا فحسب ؛ ومن أراد التفصيل ؛ فكتب الأحاديث ملأى بها ، وشتى التفاسير غاصة بتفصيلاتها وتأويلاتها . وسنشير إلى بعضها إذا اقتضى المقام ذلك .

شق صدر الرسول عليه السلام

١ — فقد جاء فى بعض روايات هذه الأحاديث : أن جبريل عليه السلام جاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشق صدره الشريف ، وأخرج قلبه ؛ فغسله بماء زمزم ...

قال : فأتيت بطست من ذهب ، مملوء حكمة وإيمانا ؛ فحشى بهما قلبه الشريف .

وقيل : إن قلبه الشريف ؛ قد شق مرتين .

ورواية الحديث تقول « فحشى صدره ولغاديده » (أى عروق حلقه) .

وهنا يحق لنا ؛ بل لكل عاقل أن يعترض :

هل تُرى الحكمة والإيمان فى الطسوت ؟ ولو كانت هذه الطسوت من ذهب ، أو ماس ، أو زبرجد !

وما الحكمة فى أن المولى سبحانه وتعالى يجعل هذا أمراً مادياً ، ملموساً ، محسوساً ؟

وقد أورد المولى جل شأنه ؛ فى كتابه الكريم ؛ على رسوله الرؤف الرحيم ؛ فى شأن داود عليه السلام « وآتاه الله الملك والحكمة » وقوله عز من قائل « يؤتى الحكمة من يشاء » .

فكيف يؤتى المولى سبحانه وتعالى الحكمة لداود ؛ بل لمن يشاء من خلقه ؛ بغير شق صدور ، واخراج قلوب ، وادخال الحكمة فيها ؛ محمولة فى طسوت من ذهب ؟ !

كل هذا وأمثاله : يجعلنا فى حل من رد هذه الأحاديث وأمثالها !

ومن رأى قبولها : فليقبلها ؛ وأمره مفوض لربه !

٢ — وقد قيل : إن جبريل عليه السلام : صلى بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم الظهر (أول صلاة : تعليما له) .

ويناقض هذا القول : حديث آخر جاء فيه : إنه صلوات الله وسلامه عليه ؛ صلى فى كل سماء ركعتين يؤم أملاكها !

٣ — كما قيل : إنه عليه الصلاة والسلام : قد أسرى به مرتين : إحداهما ؛ فى نومه — قبل النبوة — والأخرى : فى يقظته .

وقيل : أسرى به : يقظة ، وعرج به مناماً . . . الخ .

فساد القول بربط البراق

٤ — قد أجمعت الأحاديث الواردة كلها على أن الرسول عليه الصلاة والصلام ؛ حينما وصل إلى المسجد الأقصى : نزل عن البراق ، ثم ربطه بحلقة باب المسجد . أو ربطه جبريل بالصخرة كما قدمنا .

البراق ملكا ، لا دابة

وهنا يحق لسائل أن يسأل : هل كان البراق دابة ، خشى الرسول الكريم أن تند ، أو تجفل ، وتنطلق فى الصحراء ، كما يقع من شرار الدواب ؟ أم كان ملكا مكلفاً بحمله صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، كما ورد فى الكتاب الكريم .

فإذا افترضنا أنه دابة ، فإن من الأفراس والدواب : من يقف عند صاحبه فلا يزول عن مكانه !

وإذا كان ملكا — كما جاء فى الأحاديث — فكيف يعامل الملك ، معاملة البهائم العجماوات ! ؟

وفى الحالين : أين جبريل وميكائيل عليهما السلام ، وقد كانا يسيران فى ركابه كما ورد ؟

وقد جاء فى إحدى روايات هذا الحديث : أن جبريل عليه السلام أتى الصخرة ببيت المقدس ، فوضع أصبعه فيها فخرقها ، فشد بها البراق .

جبريل : الذى يرفع البلدة بما فيها ومن فيها إلى عنان السماء ، فيقلبها رأساً على عقب ، يخشى أن يند منه البراق ، الذى يعلم أنه ليس بحيوان جموح ، ولا إنسان طموح ، بل ملكا من الأملاك ، الذين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

٥ — وجاء أيضاً فى هذه الأحاديث : أن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه : صلى فى بيت المقدس ، ليلة أسرى به .

وقد أنكر كثير من الصحابة هذه الصلاة .

وقال حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه : لو صلى فيه : لكتبت علينا صلاة فيه .

وقد رأى بعض الصحابة الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام — بعد لحوقه بالرفيق الأعلى — فقال له : يا رسول الله إن ناساً من أمتك يحدثون عنك فى السرى[1] بعجائب . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ذاك حديث القصاص » .

---

١ — المراد بالسرى : الإسراء . والسرى ؛ كالهدى : سير عامة الليل .

طرق جبريل لأبواب السموات

٦ — ويأتى بعد ذلك : الصعود إلى السموات ؛ وكيف كان يطرق جبريل عليه السلام باب كل سماء منها . فيقال له : من ؟ فيقول : جبريل . فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . فيقال : أوقد أرسل إليه ؟ فيقول : نعم .

علم الملائكة : أوسع من علم البشر

هذا وإن من المقطوع به أن جبريل عليه السلام : رئيس الملائكة المكرمين ، وأن من فى السموات يعلمون بصعوده إليها ، وهبوطه منها ؛ لأنهم ليسوا من البشر : الذين لا يعرفون وراء ما يرونه بأعينهم ، ويلمسونه بأيديهم .

بل إن من البشر من يعلم من يطرق بابه ، ومن يكون مع هذا الطارق ؟

وعلى هذا أبسط المشتغلين بفن التنويم المغناطيسى .

ومن الواضح — عقلا ونقلا — أن ملائكة السماء : خير من سكان الأرض : معرفة لما يجرى ، وإدراكا لما يدور .

وإن أردنا أن نوضح ذلك نقلا : فقد جاءنا جبريل الأمين ؛ بما أوحاه إليه رب العزة فى قرآنه الكريم الحكيم ؛ على لسان الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا » .

فأين الحرس إذن ؟ وأين الشهب ؟ عند وجود غريب عن السماء ؛ فى السماء . إن لم تكن هناك بشارة بمجىء هذا الغريب ، واستعداد مسبق للقائه وتلقيه !

وما ذكر فى الحديث ؛ فى هذا الصدد : استهانة بملك الله سبحانه وتعالى ، وامتهان لمخلوقاته ؛ التى اختصها بقوى ، وقدرات ؛ ليست بمقدور البشر ، ولا طاقتهم !

بكاء موسى عند لقاء محمد

٧ — وبعد ذلك : يذكر الحديث لقاء الرسول بموسى عليهما الصلاة والسلام ؛ وأنه بكى عند لقائه ؛ فقال له جبريل : ما يبكيك يا موسى ؟ فقال : أبكى لأن غلاماً بعث بعدى : يدخل الجنة من أمته أكثر من يدخلها من أمتى !

موسى عليه السلام : يقول عن الرسول عليه الصلاة والسلام : مثل هذا الغلام !

أف لمن يسمع هذا فيصدقه ! أو يسمعه فلا يحاربه !

وهذا الكلام الذى يزعمون أن موسى نطق به : يبتعد عنه دهماء الأمة وغوغاؤها ؛ الذين نسمع منهم مثل هذا الابتذال !

فكثيراً ما نسمع مثل هذا الهراء ، والبذاء ؛ من طغام الناس ؛ فيؤذى سمعنا وأذواقنا ما يقولونه !

هذا فضلا عما فيه من الحقد على من وهبه الله تعالى خيراً وفضلا من لدنه !

وهذا الحقد الذى يروونه صدر ممن ؟ !

صدر من نبى من خيرة أنبياء الله تعالى ، وصفوة رسله ؛ وفى دار البقاء ؛ بعد أن أذهب المولى سبحانه عن عامة الناس ودهمائهم : كل حقد ، وغل ، وحسد ؛ فما بالك بخاصة الخاصة : من المرسلين والنبيين ؟ !

وهذا القول : يتنافى مع قول الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

فمنطوق هذه الآية الكريمة : يتنافى مع ما قاله موسى لمحمد ؛ وقد أخذ الله تعالى على موسى وعلى سائر الأنبياء معه : المواثيق والعهود على الإيمان به ونصرته !

وهل من الإيمان به ونصرته ، أن يقول عن محمد : « مثل هذا الغلام » وفى هذا القول ما فيه ؛ من الكفر بقدر محمد ؛ لا الإيمان به ! وخذلانه ؛ لا نصرته ! ونقض ميثاق الله تعالى ؛ لا الوفاء به !

وبعد ذلك يلزموننا إلزاماً بأن نتقبل هـــذا الحديث ، ونجعله أساساً من أسس الدين والإيمان !

موسى لم يكن حاقداً على محمد

ـــــــــــ

وموسى عليه السلام — وقد اختاره ربه رسولا نبياً — لم يكن فى حياته الدنيا ممن يتصف بهذه الصفات الخسيسة ؛ وإلا لما اختاره الله تعالى لما اختاره له ! فكيف به ، وقد لقى مولاه ، وصار بقربه متمتعاً برضوانه ورضاه ! ؟

ووصف موسى لمحمد بالغلام ؛ فإنه فضلا عن مجافاته للأدب ، ومنافاته للذوق ! فإن الغلام لغة : الصبي حين يقارب البلوغ ، والخادم الصغير .

سن الرسول عند الإسراء

وقد أسرى بالرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه : بعد نبوته بعشر سنين ، وقد بعث بعد الأربعين .

والراجح أن سنه عليه الصلاة والسلام حين أسرى به : إحدى وخمسين سنة ، وتسعة أشهر ، وثمانية وعشرين يوماً .

أما من قال : إنه أسرى به قبل بعثته ؛ فقد أخطأ خطأ واضحاً فادحاً !

إذ كيف تفرض على أمته الصلاة ؛ ولم يرسل إليها بعد ، ولم يعلم بنبوته أحد . بل لم يعلم هو نفسه أنه سيكون نبياً يوماً ما !

٨ — وجاء أيضاً في هذه الأحاديث : أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى فوق السموات السبع : النيل والفرات — أي والله النيل والفرات !

وكلنا يعلم أن النيل : في مصر . والفرات : في العراق .

وكلنا يعلم أيضاً من أين ينبع النيل ، وأين يصب ، ومن أين ينبع الفرات وأين يصب .

ومهما قيل من تعلات ؛ فهي حقائق ثابتة ، يجب النزول عليها ، والوقوف عندها !

فإن قيل : إنهما في السماء ، يغذيان بمائهما نيل الأرض وفراتها . قلنا : إن سائر أنهار الأرض : ينزل ماؤها من السماء . حتى المسيسبي « بأمريكا » والتيمس « بانجلترا » والراين « بفرنسا » .

تقدم محمد وتراجع جبريل

٩ — وقد جاء في هذه الأحاديث — المنكرة الغريبة — أن محمداً وجبريل عليهما الصلاة والسلام ؛ حينما وصلا إلى سدرة المنتهى : قال جبريل لمحمد : تقدم أنت يا محمد ؛ فإنك إذا تقدمت : اخترقت ، وإذا تقدمت أنا : احترقت[1] !

---

١ — هذه هي رواية الأستاذ الشعراوي ؛ كما رواها في محاضراته التي ألقاها بالتليفزيون . ولم أعثر على هذا المنطوق فيما بين يدي من المراجع .

وهى قالة : ليس لها معنى ؛ سوى إرادة تفضيل محمد عليه الصلاة والسلام ؛ على جبريل عليه السلام ، وهى مسألة — كما قدمنا آنفاً — مقطوع بها ، ولا تقبل حواراً ، ولا جدلا !

وفيها من الغرابة ما فيها : إذ كيف يحترق جبريل فى المكان الذى يلجه فى كل وقت وحين ؟ ! والذى هو مكان رضاء ورحمة ؛ وليس مكان عذاب ونقمة !

أليس جبريل : رسول الله ؛ إلى رسل الله ؟

وكيف يتقدم المرسل إليه ؛ ولا يتقدم الرسول ؟

وفى إحدى روايات هذا الحديث : أن جبريل عليه السلام وقع مغشياً عليه !

ولأول مرة نسمع أن أحد الملائكة وقع مغشياً عليه فى الدنيا ؛ وقبل قبض أرواح الخلائق جميعاً عند القيامة .

ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام : له صورتان : صورة يلتقى بها مع محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لإيلاف قلبه ؛ وصورته الحقيقية ؛ وهى كما جاء فى الأحاديث التى وردت فى وصفه : ساداً ما بين الأفق ! فهل كان — عند غشيته — فى صورته الحقيقية ؛ أم فى صورته الإنسانية ؟

وهنا يطرأ سؤال آخر : كيف يصعد جبريل إلى السماء مع الملائكة فى صورته الإنسانية ؟

١٠ — وبعد ذلك التقى محمد عليه الصلاة والسلام ؛ بربه جل وعلا (كما يروون) .

فرض الصلوات

قال : فخررت ساجداً لله عز وجل ، فقال لى « يا محمد إنى يوم خلقت السماء والأرض : افترضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك » .

عدم استطاعة القيام بهذه الصلوات

يا للهول ! رب العزة : الرؤف الرحيم ، اللطيف الكريم ؛ الذى أنزل فى محكم كتابه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » طاقتها . و « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » من القوة والجهد .

يفرض الرب تعالى — الذى هذه صفاته ، وهذا كلامه — على عباده الضعفاء — فوق وسعهم وطاقتهم — خمسين صلاة فى اليوم والليلة !

ومن المعلوم أن اليوم والليلة : يحتويان على أربع وعشرين ساعة ؛ فيخص كل صلاة ثمانية وعشرين دقيقة !

فانظر بربك أيها المسلم العاقل ؛ وليس بغافل ! العالم ؛ وليس بجاهل ! العادل ؛ وليس بظالم !

يقول المولى سبحانه وتعالى « وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً » فأين اللباس ، وأين المعاش ؛ فى هذا الخضم الزاخر بالقيام والقعود ، والركوع والسجود !؟

وقد قال الرسول الحبيب عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى لا يمل : حتى تملوا » .

وأى إنسان : لا يدركه الملل من صلوات خمسين يؤديها تباعاً : لا يكاد يجلس ؛ حتى يقوم ، ولا يكاد يقوم ؛ حتى يجلس ، وهكذا حتى تصعد روحه لبارئها ؛ لا أقول : راضياً مرضياً ، بل أقول : ضائعاً بما كلفه به الودود المجيد !

وأين الذى لا يمل من انقضاء ليله ونهاره فى العبادة ؛ التى لا تترك له وقتاً لمعاشه ، أو لرعاية أبنائه ؛ بل ولا لإنجابهم !

اللهم سوى رسل الله تعالى وأنبيائه ؛ وعلى رأسهم محمد بن عبد الله : الذى بات يصلى حتى تورمت قدماه !

يجب أن تكون الصلاة : أحب العبادات للمؤمن

وإن الصلاة : وهى أحب العبادات لدى المسلم : المؤمن بالعطاء والجزاء : ليؤديها مؤديها ؛ وهو راغم ! وهو بذلك يكفر ، أو يقارب الكفر !

فالصلاة : التى هى عماد الدين ، بل عماد الحياة : أصبح المصلى — بالغاً ما بلغ من ادعاء الإسلام ، وتقوى الله تعالى ومحبته — أصبح يؤديها ؛ وكأنه عائد من مكروه أصابه ، وغم نزل به !

الصلاة : التى كان الرسول الأعظم صلوات الله تعالى وسلامه عليه ؛ يقول لمؤذنه : أرحنا بالصلاة يابلال ! والتى كان عليه الصلاة والسلام : يفزع إليها إذا حزبه أمر ، أو لقيه مكروه !

هذه الصلاة نفسها ، وهذا أثرها ونفعها : أصبح المسلم — الذى ما فرضت الصلاة إلا من أجل راحته — يتعب من أدائها ، ويمل من وقتها !

وهى ما فرضت عليه ؛ إلا ليفزع إلى ربه — فى ساحتها — إذا ناله مكروه ، أو نابته نائبة !

يلاق المسلم إنساناً — وقد يكون هذا الإنسان كافراً : لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر — فلا يزالان فى حديث تلو حديث : على شوق منهما وتلهف ؛ وحين يفترقان : يمشى كلاهما سعيداً بما لاقاه من الآخر ؛ من حديث : قد يكون تافهاً ! وحب : قد يكون رياء ونفاقاً !

يحادث صديقه : وهو منصرف إليه بكليته — فى جده وهذره — فإذا ما وقف للصلاة مع ربه . ومالكه ، وخالقه ، ورازقه : حلت بأفكاره كل شواغل الحياة : حرامها قبل حلالها ، وسيئها قبل حسنها !

حتى إنه ليفكر — حين صلاته — فى مؤمن يؤذيه ، أو صالح يرديه ، أو فتاة يتعشقها ، أو امرأة يسطو على عرضها !

فانظر — رحمك الله وهداك — إلى أى مدى : ينزل الإنسان — مدعى الإسلام — بعلاقته مع ربه !

يفرح للقاء صديقه ، ويحنو له ، ويرنو إلى حديثه .

أما الصلاة : فإنه يستكثر بضع دقائق : يقضيها فى نعيم لقاء ربه ومناجاته . ويعود منها : وكأنما هو عائد من معسكر تدريب شاق ، أو من لقاء خصم عنيد !

وكأنما خلص من العناء ؛ إلى الراحة ، ومن الشقاء إلى السعادة .

فأى كفر هذا ، وأى إثم : يسوقهما الشيطان اللعين ، إلى أصدقائه من المطرودين !

١١ — وجاء أيضاً فى هذه الأحاديث : أنه عليه الصلاة والسلام ؛ عند نزوله — بعد فرض الخمسين صلاة — مر بموسى عليه السلام ؛ فسأله موسى : بم أمرت ؟ قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك !

قال : فلم أزل أرجع بين ربى ، وبين موسى : ويحط عنى خمساً خمساً (كأنه راجع ربه تسع مرات) .

قال : ثم احتبسه موسى عند الخمس . فقال : يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى ؛ على أدنى من هذا : فضعفوا فتركوه . وأمتك أضعف أجساداً ، وقلوباً ، وأبداناً ، وأبصاراً ، وأسماعاً ؛ فارجع فليخفف عنك ربك .

فرجع محمد — كعادته فى اتباع موسى ، والاستماع إلى ما يقوله — إلى ربه ؛ قائلا . يارب إن أمتى ضعفاء أجسادهم ، وقلوبهم ، وأسماعهم ، وأبصارهم ، وأبدانهم ؛ فخفف عنها .

فقال الجبار تبارك وتعالى : يامحمد . قال : لبيك وسعديك ! قال : إنه « لا يبدل القول لدى » .

فرجع إلى موسى ؛ فقال : كيف فعلت ؟ قال : خفف عنا . أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها ! قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ياموسى قد والله استحييت من ربى عز وجل بما أختلف إليه ! قال موسى : فاهبط باسم الله !

وقد زعموا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اختلف إلى ربه تسع مرات ، بغير حياء ولا وجل !

ويروى هذا الحديث رواته : بغير حياء ولا وجل !

ويصدقه من يصدقه : بغير حياء ولا وجل أيضاً !

وكأن موسى عليه السلام : فيما قاله نصحاً لمحمد عليه الصلاة والسلام : أرأف بعباد الله من الرؤف الرحيم ؟ وأعرف بهم من خالقهم عز وجل !

١٢ — وفى بعض روايات الحديث : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ مر على موسى ؛ وهو يصلى فى قبره (وأين قبره من السماء السادسة ! ؟)

ارتفاع صوت موسى على صوت مولاه !

١٣ — هذا : وفى بعض روايات هذا الحديث الغريب : أن الرسول عليه الصلاة والسلام — وهو فى السموات العلى — سمع صوتاً عالياً ، فقال لجبريل عليه السلام : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا موسى . قال : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ! قلت : ويرفع صوته على ربه ! ؟ قال جبريل : إن الله قد عرف له حدته !

يالهول ما يقال ! ويالقبح ما نسمع ! وياحسرتا لمن يصدق هذا الهراء !

يقول المولى سبحانه وتعالى فى قرآنه المجيد ، تأديباً للأمة ، وتعريفاً لقدر رسولها عليه الصلاة والسلام : « ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

والنبى عليه الصلاة والسلام : بشر مثلنا ، ولو أنه ليس كسائر البشر !

فيأتى موسى : فيرفع صوته فوق صوت ربه ، وخالقه ، ومالكه ! إنها لإحدى الكبر ! ويا حمق من يصدق ذلك ، ويا بؤس من لم يدفعه ، ويحارب من أجل بطلانه !

ثم دنا فتـــدلى

وفى بعض روايات الحديث « ثم دنا الجبار فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » .

١٤ — وقد جزم الأستاذ محمد متولى الشعراوى — فيما ألقاه بالتليفزيون — بأن قول المولى سبحانه وتعالى « ثم دنا فتدلى » يعنى أن الجبار القهار : دنا من محمد ، وتدلى إليه !

وزعم أنه دنو : لا كدنونا ! وتدل : لا كتدلينا !

وهو قول قاله قلة لا يعتد بها ، وقد ردّ على ذلك فضلاء الصحابة جميعاً ، ونفوه نفياً قاطعاً ، وعابوه عيباً شديداً !

فهذا الدنو المزعوم : ليس كنزول المولى سبحانه إلى السماء الدنيا (كما ورد فى الأحاديث) وليس كقوله تعالى ؛ فى الحديث القدسى « من أتانى ماشيا أتيته هرولة ... الخ » فليس هذا حقيقة واقعة ؛ بل هو على سبيل المجاز .

وإلا إذا تصورنا أن المولى سبحانه يدنو من بعض عبيده ويتدلى إليه ، وينزل بنفسه ؛ لا بأمره . وأنه تعالى يمشى هرولة !

إذا تصورنا هذا حقيقة : لكان بعدنا عن الصواب : بعد الله سبحانه وتعالى عن مشابهة مخلوقاته !

وممن عاب هذا التأويل — الذى أيده الشيخ الشعراوى — جلة من الصحابة ؛ منهم ابن مسعود ، وأبو ذر الغفارى ، وعائشة ، والبيهق : من المتأخرين ، وغيرهم ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ؛ فى هذا التأويل . وأكدوا أن المراد بالدنو ، والتدلى ، والرؤية : جبريل عليه السلام ، ولا قول يقبل خلاف هذا !

وقد أثار أيضاً الأستاذ الشعراوى حديث « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وكأن هذا الحديث لم يرق لديه ؛ فتناوله ببعض النقد ؛ مقرراً ألا جهاد يفضل الجهاد فى سبيل الله ! وقد غاب عنه أن جهاد النفس : هو السبيل الأوحد للجهاد فى سبيل الله ؛ الذى لا يجىء إلا بواسطة مجاهدة النفس ، وقهرها عن شهواتها ! وبذلك ترخص أمامها الدنيا ، وتغلو الآخرة بما فيها من نعيم مقيم !

١٥ — هذا ، وأنه لمما لا شك فيه ؛ أن رسولنا الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ أفضل الرسل على الإطلاق ، وإمامهم !

إبراهيم والملكوت

وإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ الذى أنزل المولى سبحانه فى حقه « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

قد يقول قائل : كيف لا يرى محمد : ما رآه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام ؛ من ملكوت السموات والأرض ؟

فإذا ما استوعبنا معنى الآية الخاصة بابراهيم عليه السلام : وجدنا أنه رأى من ملكوت الأرض : فساد عبادة غير الله سبحانه وتعالى « وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » .

ورأى من ملكوت السموات : كبار الكواكب ؛ فظن أنها قد تكون أربابا « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى . . . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون »[1] .

ولما تبين له فساد ما عليه صحيحا ؛ لطروء التغير عليه ، والإله : يجب أن يكون ثابتا لا يتغير : طلب الهداية من مولاه ، الذى خلقه ورباه ! « قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . . . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »

فلما رأى إصرار قومه على عبادة مالا يجوز أن يعبد ؛ بعد إبداء الحجج الناصعة القاطعة على فساد تلك العبادة : شرع فى إفهامهم بالطريقة التى لا يستطيع نفيها عاقل ! فأتى أصنامهم وحطمها بيديه « فجعلهم جذاذا » .

---

١ — الراجح أن إبراهيم عليه السلام : فعل ما فعل ، وقال ما قال : ليحاج قومه ، ويعلمهم أن هذه الكواكب — رغم عظمتها ونفاستها — لا يصح عقلا أن تكون آلهة ؛ فما بالهم بآلهتهم الحسيسة ؛ التى هى من الحجر الأصم ! وسياق الآيات تقتضى ذلك التأويل .

وهى الحجة الملموسة ؛ التى لا يتطرق إليها شك : مخلوق يحطم الخالق ويهشمه ، فلا يستطيع الخالق أن ينال منه شيئاً !

هذا مبلغ مارآه إبراهيم من ملكوت السموات والأرض .

محمد والملكوت

فإذا ما أردنا أن نتفهم مدى إراءة رسولنا عليه الصلاة والسلام لملكوت السموات والأرض : نرى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم آمن بربه جل وعلا ؛ فوق إيمان الملائكة : جبلة ، وعصمة ، ووحياً !

آمن حين نزل من بطن أمه ؛ موحداً ، رافعاً أصبعه إلى السماء ، موجهاً بصره إليها !

وظل صلوات الله تعالى وسلامه عليه : محفوفاً بعناية ربه وكلاءته ؛ فلم يقع منه ما هو خلاف الأولى ؛ ولم ينزل من عليائه إلى عموم المباحات !

بل ظل طوال حياته : يرتقى درجات الكمالات ؛ مدفوعاً إليها بنفسه الطاهرة ، وبمعونة من ربه تبارك وتعالى ؛ حتى بلغ عنان السموات ! فاختصه مولاه بما اختصه ، وحباه بما حباه !

ولاقى بعد ذلك من عنت قومه وأذاهم ؛ مالاقى ! فلم يثن ذلك من عزمه ، ولم يفت فى عضده !

بل جادلهم بالحجة والموعظة ! وكلما ازداد إيذاؤهم له : ازداد عطفه بهم وعليهم !

وكلما زادوه حمقاً وسفهاً : زادهم حلماً ورفقاً !

ولم يزده وصفهم له بالجنون ، والسحر ، والكذب ؛ سوى دعاؤه لهم بالهداية « رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

هذا هو خيرة أنبياء الله ؛ كما أراد له الله !

وهو ليس فى حاجة إلى إعلاء شأن ، أو رفعة قدر ؛ فقد أعلى المولى الكريم شأنه ؛ ورفع قدره !

١٦ — هذا وقد تطرق الأستاذ محمد متولى الشعراوى (فى محاضراته التى ألقاها فى التليفزيون) إلى قوله تعالى « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » وأن لفظ « الكبرى »

ليست وصفاً للآيات ؛ بل المعنى : لقد رأى الآية الكبرى من آيات ربه . مريداً بذلك المعنى : آية لقائه ليلة المعراج بربه ، وفرض الصلوات عليه .

وهو معنى لا نوافقه عليه ؛ على استحياء منا ، لتقديرنا لمزيد فضله ، وغزير علمه ، وفائض تقواه !

فكما قال المولى سبحانه لمحمد « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » فقد قال نظيره لموسى « لنريك من آياتنا الكبرى » ولا فرق فى الحالين بين اللفظين ؛ وبالتالى بين المعنيين .

فموسى : رأى آيات كثيرة من آيات ربه : مكالمة المولى سبحانه له ، وإبدال العصا حية ، وإنارة يده بعد وضعها فى جيبه ، وفضح سحر السحرة الذين جمعهم فرعون لمحاربته ، وإيمانهم به !

ومحمد : رأى أيضاً آيات كثيرة من آيات ربه : فى أرضه ، وفوق سمواته : حيث أطلعه مولاه جل شأنه على عجائب خلقه ، ومآلهم عنده !

فرأى — فى سماوات ربه عز وجل — عدل القضاء ، وصدق الوعد ، لمن استوجب الحسنى ! وتأكد الوعيد ؛ لمن استوجب السوأى !

ورأى جنة مولاه وناره « بغير قيد أنهما فى السموات » .

ورأى من آيات ربه آيات وأى آيات !

ثم عاد إلى حيث كان ؛ وقد تجسدت أمام عينيه المعنويات ؛ فصارت حسية ؛ لا شبهة فيها ولا غموض !

كل هذه الآيات ، أراها له مولاه ؛ من غير طلب ولا مطمع !

فقد كان يطلب منه دون ما رآه ؛ فيؤمر أن يقول « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

فأبدله المولى المتفضل عن تضييق أهل الأرض عليه : شرف الصعود إلى السماء ، وسعتها له !

رد هــذه الأحاديث :

١٧ — وهذه الأحاديث التى أشرنا إليها : قد ردها بعض أفاضل رواة الأحاديث ، وعلمائهم :

فقد أورد الإمام ابن كثير أغلبها ، وأشار إليها بقوله :

مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح ، ومنها ما هو منكر !

إن بها غرابة ، ونكارة جداً !

سياق فيه غرائب عجيبة !

فى بعض ألفاظه غرابة ، ونكارة شديدة !

وقد قيل عن بعض رواة الحديث : إنه اضطرب فى هذا الحديث ، وساء حفظه ، ولم يضبطه !

١٨ — وحين يقول المولى سبحانه وتعالى لنا معشر المسلمين « من يطع الرسول فقد أطاع الله » : فإنما يريد منا أن نطيعه جل شأنه بطاعة رسوله ؛ الذى لا ينطق عن الهوى !

وطاعته صلى الله تعالى عليه وسلم : واجبة فيما أمر به أو نهى عنه ؛ أو فعله بنفسه . كل ذلك حال حياته .

ويستمر الأمر بتلك الطاعة ؛ بعد لحوقه بالرفيق الأعلى ؛ بشرط أن يصح ما ينقل عنه صلى الله تعالى عليه وسلم صحة كاملة ، وأن يكون ما يروى عنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه فى حدود الأخلاق ، والمعقول ، والمقبول : ذوقاً وعرفاً !

بل فى حدود ما عرف عنه عليه الصلاة والسلام : من كريم السجايا ، وحسن الخلال !

فإذا ما روى راو : أن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه قال « حبب إلى من دنيا كم النساء » وجب أن نذيع كذبه ، وأن نشيع فسقه !

وإذا ما روى راو : أن الرسول المعصوم رأى زينب بنت جحش ؛ وقد كشف الهواء ثيابها ، فأعرى ساقيها ، وأنه هويها ، وبدا لها منه ما يدل على ذلك ؛ فذكرته لزوجها زيد : فطلقها ليتزوجها الرسول !

إذا زعم ذلك زاعم ، قلنا له : كذبت ، وخسئت !

لذلك : لا يجوز أخذ مثل هـــذه الأحاديث على علاتها ، بغير ما تمحيص ، وفهم ، وتدقيق !

إذ أنها مصدر من مصادر التشريع ؛ كالقرآن تماماً !

والقرآن : قد حفظه منزله عز وجل ! ونحن مهما بالغنا فى المحافظة على الأحاديث ، فلن نبلغ ما بلغه القرآن من حفظ المولى له ! وأين حفظ البشر ، من حفظ خالق البشر ؟!

الإفراط والتفريط

١٩ — هذا وإن آفة كل الأمم : الإفراط والتفريط .

اليهودية :

فالأمة اليهودية : فرطت فى كل شيء — حتى الأعراض — وأفرطت فى حب المال وحده ، وجمعه : يسرقون فى سبيل جمعه ، ويقتلون !

يجمعونه من حل أو حرام (وقد يحلو الحرام عندهم عن الحلال) ويهدرون فى سبيل ذلك كل مقدساتهم (إن كانت لهم مقدسات) .

النصرانية :

والأمة المسيحية : فرطت فى حق ربها ، وأفرطت فى حق رسولها : فجعلت من رسولها إلهاً ، وما هو بإله ! وابن إله ، وحاشا للإله أن يلد ! وذبيحاً من أجل خطاياهم ؛ التى لا يضيمها صلب آلاف الأنبياء !

الإسلامية :

والأمة الإسلامية — حفظها الله تعالى ، ونقى عنها أوضارها — فرطت فى حق ربها من التكريم والتبجيل ، وأفرطت فى حق رسولها : أكرم الرسل عليه الصلاة والسلام ؛ حتى قاربت أن تقول فيه ما قالته وتقوله النصارى فى نبيهم !

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم !

وها نحن أولاء نردهم عما فرطوا فيه فى حق ربهم ، وما أفرطوا فيه فى حق نبيهم !

الطريق إلى نقض ما اتجهنا إليه

وعلى من يريد أن يؤيد هذه الأحاديث ، وينقض ما قلناه فيها : أن يسائل نفسه هذه الأسئلة ، وأن يحسن الإجابة عليها :

١ — لماذا شُق صدره الشريف ؟

وإذا كانت الإجابة : لإخراج حظ الشيطان منه . قلنا : ولم شق صدره الشريف مرتان — كما جاء فى بعض الأحاديث — وهل حظ الشيطان يعود بعد الشق والغسل ؟

٢ — هل شقت صدور كل الأنبياء ؟ أم بقى فيها حظ الشيطان ؛ كسائر بنى الإنسان ؟ أم كان الشق : خصوصية لمحمد عليه الصلاة والسلام !

وما تأويل قوله تعالى : عن يوسف عليه السلام « إنه من عبادنا المخلصين » وقول إبليس « ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » .

فكيف كان يوسف : ممن لا سلطان لإبليس عليهم ؛ من غير شق صدور ؛ وكان صدر نبينا عليه الصلاة والسلام : فيه حظ للشيطان ؛ احتاج معه إلى شق صدره الشريف مرتين ؟

٣ — وإذا استسغنا أن صدره الشريف قد شق فعلا ؛ فكيف نستسيغ حشوه حكمة وإيماناً ! ؟

٤ — وإذا سلمنا بجميع ذلك ؛ فكيف تغرف الحكمة والإيمان فى طسوت ولو كانت هذه الطسوت من ذهب ، أو فضة ! ؟

٥ — لماذا ربط الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم البراق فى حلقة باب المسجد الأقصى ؟ أو لماذا يخرق جبريل عليه السلام صخرة بيت المقدس بإصبعه ، ويربط فيها البراق ؟ كما جاء فى بعض الروايات ، وهل كان الرسول عليه الصلاة والسلام : يعلم أن البراق ملكا ، أو دابة ؛ أو لا يعلم ذلك ؟

٦ — لماذا سئل جبريل عند كل سماء عن نفسه ، وعمن معه ؛ وهو معلوم لأهل السماء ؛ معرفة لا تقبل الشك ؟

٧ — وهل اعتاد الغرباء : طرق أبواب السماء ؛ ليفتح لمن يراد إدخاله ، ويرد فى وجه غيره ؟

٨ — لماذا قال جبريل لمحمد عليهما الصلاة والسلام — عند بلوغهما سدرة المنتهى — تقدم يامحمد ؛ فأنت إذا تقدمت : اخترقت ، وأنا إذا تقدمت : احترقت ؟ !

وإذا كانت الإجابة : لظهور فضل محمد ، وعلوه ، ودنوه على جبريل : فأين يكون جبريل إذن : عند تلقيه من رب العزة ؛ ما يلقيه إلى أنبياء الله تعالى ، وعلى رأسهم محمد عليه الصلاة والسلام !

٩ — كيف يكون النيل والفرات ؛ فوق السبع سموات ؛ وهما فى الأرض : تحد منابعهما ، وتعرف مصابهما ؟

١٠ — كيف يتصور إنسان أن يراجعه إنسان آخر — فيما يقوله ، أو فيما يأمر به — ثلاث مرات ؛ بغير ما وجل ، أو استحياء ! فكيف بإنسان يراجع رب العزة تسع مرات ؟

١١ — ولماذا وضع موسى — فى هذا الحديث — موضع المرشد لمحمد ، والناصح له ؟ ولم لم يكن ذلك الناصح إبراهيم — مثلا — وهو رأس الملة الحنيفية ، وأب الأنبياء ، وجد لنبينا : عليهم جميعاً الصلاة والسلام !

١٢ — كيف يستسيغ إنسان أن ينسب إلى موسى الحقد على محمد ، وامتهان قدره ؛ مع علمه برئاسته له ، وهيمنته عليه ! فيبكى — حقداً وحسداً — ويقول عنه : مثل هذا الغلام ! ؟

١٣ — كيف يعقل عاقل ؛ امتهان موسى لعزة ربه وجلاله ؛ فيخاطبه مخاطبة الند للند ؛ بل أحط ، وأشد ! ؟

١٤ — ما الرد على ما قاله أئمة المفسرين والمحدثين من كلام تناول هذه الأحاديث ؛ يبلغ حد الطعن فى صحتها ، وإنكار ما حوته ، وتجريح بعض رواتها ؟

كلمة أخـــيرة

إنه لا يضير اللآلئ والجواهر ، ولا ينتقص من قدرها ، ولا يطمس من نورها وضوئها : أن يعلوها غبار عابر !

ولا يطعن فى أصالتها وجودتها أن يقوم مسلم بإزالة هذا الغبار ؛ الذى لحق بهذه الجواهر واللآلئ ؛ فتبدو أكثر لمعاناً ، وأشد بريقاً وتلألؤاً !

وإذا ما وازنا بين خدش ذلك الطود الشامخ الذى بناه جلة العلماء ، وأئمة أهل الفضل والصدق من المحدثين ؛ بعد أن أفنوا حياتهم فى تحصيله ، والحرص على نفى الشوائب عنه ومنه !

إذا وازنا بين ذلك ، وبين هدم ما بناه المولى سبحانه وتعالى فى رؤسنا من موازين : لا نؤاخذ إلا بها ، ولا نثاب إلا بنتائجها !

لا نجد مناصاً من اتباع ما أراده الله جل شأنه من عباده ؛ حين خاطبهم بقوله « لقوم يعقلون ، لقوم يتفكرون ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » .

فإذا عرضنا ما ورد فى هذه الأحاديث على العقل : نفاها . أو على الفكر : أباها ، وإذا تدبرناها : وجدنا الحق فيما سواها !

فكيف نلاقى يوم التلاق ربنا ؛ وقد عقلنا أنفسنا بعقال غيرنا ؛ واتبعنا مالا تستسيغه عقولنا التى وهبناها ، لنفرق بها بين الحق والباطل ، والعالم والجاهل !

فإذا قيل : إنه البخارى ومسلم ؛ وما أدراك ما البخارى ومسلم ! قلنا ما قلناه آنفاً : إن المولى سبحانه وتعالى لم يعدنا إلا بحفظ قرآنه الكريم وحده ، ولم يعدنا بحفظ غيره ؛ ولو كان هذا الغير : البخارى ومسلم !

وهذه سنة المولى سبحانه وتعالى ، حتى كتبه الأخرى ؛ التى أنزلها ملائكته على أنبيائه ورسله : لم يحفظها ؛ لأنه لم يعد بحفظها !

ولن يضير البخارى ومسلم : أن يعاب بضع أحاديث من عشرات الألوف من الأحاديث البالغة نهاية الصحة ، وغاية الدقة !

فمن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا : أن تعد معايبه !

وليس معنى ذلك ؛ أن يأتى كل من هب ودب ؛ فيعترض على أحاديث سيد الخلق ؛ التى صحت روايتها عن سادة الأمة الإسلامية ؛ ويقول : هذا الحديث غير معقول ، أو هذا الحديث غير مقبول ؛ لهوى فى نفسه ، وغرض قذفه الشيطان فى قلبه !

فإن تكذيب حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : كالكذب عليه تماماً !

عافانا المولى بمنه وكرمه : من التكذيب والكذب ! فقد قال عليه الصلاة والسلام « من كذب علىّ عامداً متعمداً : فليتبوأ مقعده من النار » .

وقانا الحنان المنان : شر ناره ، وبوأنا مقعد صدق مع من رضى عنهم ورضوا عنه !

وبالذى قدمناه من بحث وأدلة : تبلغ فى مجموعها حد اليقين : نخرج بنتيجة واحدة لا مناص منها ، ولا محيد عنها : هى أن هذا الحديث وأمثاله مدسوس على فضلاء المسلمين ؛ من أعداء الدين ؛ وعلى رأسهم اليهود الملاعين ؛ ليشوهوا به جمال الدين — وهو فى قمة الجمال — وليحطوا من جلال الإسلام — وهو فى قمة الجلال !

وقد أردنا بما قلناه ؛ ردّ سهامهم فى نحورهم ، وكيدهم إلى صدورهم : ليبوءوا دائماً بالخزى والخسران !

ولا يخفى على القارىء الحكيم : أن عتاة اليهود كانوا يملأون الجزيرة العربية : سكناً ، ومكراً ، وكيداً ، ولؤماً وخبثاً ، وجبناً !

ولم يكن لهم من سلاح يستخدمونه سوى هذا السلاح الذى أتقنوه ، ويتقنونه دائماً !

حمانا المولى سبحانه من كيدهم ، وأبان لنا سوء مقصدهم !

ولولا ضيق المقام ؛ لأتينا فوق ذلك بالعجب العجاب !

وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ نعم المولى ؛ ونعم النصير ! ولاحول ولا قوة إلا بالله ؛ وسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم !

هذا وقد رأينا — إتماماً للفائدة — أن نلحق بهذا الباب : بعض أخطاء المفسرين ، وسقطات المحدثين !

أخطاء المفسّرين: قُدامى ومُحدَثين
وسَقطات المحدّثين

بعض أخطاء المفسرين ، وسقطات المحدثين !

ذهب كثير من فضلاء المسلمين إلى عدم جواز ربط بعض الآيات الكونية بالعلم الحديث ؛ بحجة أن مفهومات العلوم الحديثة : تتغير بتغير النظريات العلمية التى كثيراً ما يخطىء .

فلا يجوز أن نربط معانى الآيات بهذه النظريات ؛ فننسب بذلك إلى القرآن الكريم : ما لا يصح أن ينتسب إليه .

وهذا القول صحيح إلى حد ما ؛ بيد أن هناك نظريات علمية : بلغت حد المحسوسات والمرئيات :

فليس من أحد يستطيع أن يتشكك فى كون الأرض كروية ، أو أنها متحركة ، أو أنها تدور فى فلك الشمس . . . الخ هذه العلميات المقطوع بها .

هذا وقد حركت هذه الأفكار شجونى وأشجانى ، وبعثت فى نفسى الأسى مما رأيته وقرأته فى أمهات كتب التفسير — قديمها وحديثها — مما دسه بنو إسرائيل الملاعين !

وإنى إذ أسوق بعض الأمثلة ، فإنما أسوق منها النزر اليسير ؛ الذى يتسع له المقام .

ومن العجب أن ما دسه اليهود : قديم قدم الإسلام . وقد أخذه عنهم نفر من كبراء المفسرين ؛ جرياً وراء غريب القول ، ومعجب القصص !

وقد نقلها الناقلون ، ورواها الراوون ؛ حتى بلغت حد التواتر واليقين !

وجميع ما وقع فيه المفسرون : وقعوا فيه بحسن نية ، وفهم ساذج .

بيد أنهم لم يزنوا ما رووه ونقلوه ؛ بموازين الفهم الصحيح ، ولم يقيسوه بمقاييس القيم والأخلاق ، ولم يفرقوا بين صحيح الأقوال وسقيمها .

هذا وقد منى الإسلام : من بدء ظهوره ، وانبثاق نوره : بأعداء بغاة طغاة ؛ جبابرة فى إعداد الشر ، وتدبير المكر !

فما فتئوا — حين رأوا آياته البينات ، ومعجزاته الظاهرات — أن حاكوا الأحابيل ، ونسجوا الأباطيل ؛ حول ما أنزله الله تعالى من قرآن كريم ، وهدى مستقيم !

ولم يكتفوا بذلك ؛ بل دسوا فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام : ما هو برىء من قوله ، أو التحدث به .

وإن ديناً يبدأ بمثل هذه القوة ، ويتغلغل فى نفوس معتنقيه بمثل هذه السرعة : لجدير بأن يلفت أنظار خصومه للكيد ، ويحثهم على النيل منه !

فلجأ اليهود — وهم العدو الأول للإسلام والمسلمين ؛ بل هم أعداء كل ملة ودين — وقد كانوا يسكنون وقتذاك الجزيرة العربية ؛ وهم أبد الدهر : أهل مكر ، ودس وخداع ! لجأوا إلى افتراء الأكاذيب وإسنادها إلى إمام الأنبياء ، وسيد الأتقياء ، وخير أهل الأرض والسماء ، عليه الصلاة والسلام . ليطفئوا بذلك نور الله تعالى «والله متم نوره ولو كره الكافرون» .

وأسندوا رواية هذه الأحاديث إلى فضلاء الصحابة . الذين اشتهروا بالصدق ، وامتازوا برجاحة العقل وكمال الإيمان !

والذى يدعو إلى العجب والغرابة : أن العلماء الأعلام ؛ الذين تصدوا لرواية الأحاديث النبوية وشرحها ، وزعموا الدراية بها ، ومعرفة الصحيح والسقيم منها : لم يشيروا إلى هذه الأحاديث وأمثالها بالتجريح والتضعيف ؛ بل كان كل همهم : بحث حال رواتها ، وهل هم من لفيف الثقاة الذين يركن إليهم ، ويسند عنهم ؛ أم ممن اشتهروا بالغفلة والنسيان ؟

وقد فاتهم — أثابهم الله تعالى — أن الكافر الكذاب ؛ حين يسند حديثاً مفترى عن الرسول : إنما يسنده إلى أجل الرواة ، وينسبه إلى أتقاهم وأصدقهم .

فكم من حديث افتروه على الصادق المصدوق ، وكم من قصة اختلقوها وزيفوها !

ومن عجب أن هذه الأحاديث ، وتلكم القصص : وجدت مرتعاً خصيباً ؛ فى بيئة أعجمية : اعتنقت الإسلام — تقليداً لا اقتناعاً — فنقلتها فى كتبها ، وأشادت بها فى تأويلاتها ! فوقعت فى تلك الأحابيل ، وعللت ما دونته بشتى التعاليل . ونقلها عنهم ضعيفوا الفهم . قليلوا الدراية والعلم . فسارت بين المسلمين : سير النار فى الهشيم !

وقد تصدى لدفعها والتبرىء منها بعض العقلاء المفكرين ، وتصدى للدفاع عنها بعض الأغبياء المتفيهقين ! وإليك الدليل ، وعلى الله قصد السبيل !

قصة زينب بنت جحش

فمن ذا الذي يصدق أن النبي الأمين — الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق — رأى زينب بنت جحش ، فهويها ، وراقت في نظره ، وقال « سبحان مقلب القلوب » ، وهي زوج لرجل آخر مسلم ، من أفراد أمته ، والتي بعث إليها ليهديها ، لا ليسبيها ؟!

وأنه كان حريصاً على رؤيتها ؛ فحدث عند مروره : أن بعث الله تعالى ريحاً فرفعت الستر ، وزينب ما عليها إلا ثوب واحد ، فرآها فوقعت في نفسه ، فأظهر أنه آت لملاقاة زيد .

والأغرب من هذا : أنهم يروون أن النبي صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، قال لزيد — بعد طلاقها — « ما أجد في نفسي أوثق منك فاخطب زينب لي » .

وأن ذلك كان من النبي عليه الصلاة والسلام : امتحاناً لإيمان زيد ، وشدة يقينه : أيقوم بالوساطة خير قيام ، أم لا ؟

أيقوم بالسفارة بين من أحب امرأته — وهي في عصمته — واشتهاها ، وهي حلاله وحده ، لا يشركه فيها إنسان : استحلها بكلمة الله ، وتملكها بشريعة الله !

هل يقوم زيد بالسفارة بينها وبينه ؛ أم تأخذه العزة بالإثم ، فيقول : لا إن ضميرى لا يطاوعني ، ونفسي تتأبى أن أخطب امرأتي ، التي طلقتها ؛ لأن إنساناً آخر رآها فأحبها ، ولو كان هذا الإنسان نبياً ، ولو كان هذا النبي محمداً !

ورووا أيضاً أن المولى سبحانه وتعالى قد أشار — بعد إيراد قصة زواج الرسول عليه الصلاة والسلام من زينب — إلى جواز كل ما تقدم بقوله : « سنة الله في الذين خلوا من قبل » أي سنة الله في الأنبياء السابقين : كداود ، حيث جمع بينه وبين من فتن بها . كما جمع بينك وبين زينب ، وقد فتنت بها[1] !

والأعجب من هذا : أن يأخذ بعض من يشهد لهم بالتقدير والتقديس ؛ من كبار علماء الملة المحمدية ومنهم الإمام الغزالي في كتابه « الوجيز » في فقه الشافعي — في كتاب النكاح — يأخذوا هذه الأسطورة القذرة ، فيقولوا : إن النبي إذا نظر إلى امرأة فأعجبته : طلقت من زوجها وحلت له !

---

(١) انظر المزيد في تفسير القرطبي ، والطبري ، وغيرهما من أئمة المفسرين . عند تأويل قوله تعالى « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها » .

وفاتهم ذكر : هل عليها أن تعتد ، أو أن يحوزها النبي بغير عدة ، ولا إبراء رحم ؟! وكيف يجوز نسبة بعض ذلك لسيد الخلق ، وقد أمر أمته فيما أمر : « لا تخطب على خطبة أخيك ولا تسم على سومه » فكيف ينهى عن خطبة المخطوبة ، ويختطف المزوجة من زوجها ! ؟ « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

ويمثل هذا المنطق الفاسد ، والفهم الخاطىء المظلم : كانوا يعالجون هذه المسائل الشائكة ، التي تذهب بكرامة الدين ، وتودى بحرمة فضلاء الأنبياء والمرسلين !

قصة داود عليه السلام

ومن ذا الذى يصدق أن « داود » عليه السلام : فعل ما لا يفعله أقل الناس خلقاً وديناً : فنظر إلى امرأة عريانة ، فشغف بحبها ، ولما سأل عنها : علم أنها زوجة أحد جنوده ؛ فأرسله على رأس جيش — ليقتل لا لينتصر — فعاد منتصراً ظافراً ، فأرسله مرة أخرى ، وأخرى ، حتى قتل فتزوجها ؟ !

قصة سليمان عليه السلام

ومن ذا الذى يصدق أن « سليمان » عليه السلام : فعل فعل السفهاء الجهال ، فقتل من الجياد — التى أعدت للجهاد — عشرات الألوف ؟ !

موسى ومحمد ، والمعراج

ومن ذا الذى يصدق أن أكرم الرسل وإمامهم : رأى ربه رأى العين ، وراجعه مراجعة الند للند — بايعاز من موسى — عند فرض الصلاة خمس مرات .

ولأمر ما : كان موسى آمراً ، ومحمد مأموراً ! وكان موسى هادياً ، ومحمد مهدياً ! وكان موسى ناصحاً ، ومحمد منتصحاً !

ولأمر ما : كان موسى يتبوأ مكان المرشد لمحمد : الذى أرسله ربه : رحمة للعالمين ؛ وموسى من العالمين !

زيادة ما ليس فى القرآن

ومن ذا الذى يصدق أن الرسول عليه الصلاة والسلام — الذى لا ينطق عن الهوى — يذكر من القرآن ما ليس فى القرآن . فيقول : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى !

فآمن من المشركين خلق كثير : لمدح آلهتهم فى الكتاب الذى أنزل على محمد !

سحر الرسول عليه الصلاة والسلام

ومن ذا الذى يصدق أن الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد أنزل عليه ربه فيما أنزل « والله يعصمك من الناس » قد سحره لبيد بن الأعصم اليهودى . حتى أنه ليخيل إليه أنه يأتى الشىء فلا يأتيه .

وليس ببعيد على مثله — وحاله كما وصفوا — أن يخيل إليه أنه قد أوحى إليه ، ولم يوح إليه شىء ! أو أنه قد بلغ : ولم يبلغ !

ويصدق عليه قول المشركين والكافرين : « إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » .

يوسف عليه السلام

ومن ذا الذى يصدق أن يوسف الصديق عليه السلام : قد همّ بامرأة العزيز هماً لا يتوهم أن يقع فيه أحط الفساق ، وذكروا فى تفصيل ذلك : ما أنزه لسانى عن ذكره ، ولا أوذى الأسماع بقوله !

نسبة الفحش إلى أزكى خلق الله !

ومن يصدق أن الرسول الكريم : يجلس بين صحابته ، فيقول : « أوتيت قوة أربعين فى البطش والجماع » .

ويقول أيضاً : « حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء » والله تعالى يقول فى كتابه الذى أنزله عليه « زين للناس حب الشهوات من النساء » .

والمزين طبعاً : هو الشيطان . أو النفس الأمارة بالسوء !

يا للداهية الدهياء ، والفتنة العمياء : الرسول عظيم الشأن ، جليل القدر : يقول على ملأ

من الناس : أنا أحب النساء ! هذا فى حين أن القرآن الكريم المنزل عليه من ربه العظيم ؛ يقول فى معرض الذم والقدح « زين للناس حب الشهوات من النساء » .

ولم يكف هذا الكافر المفترى على أفضل الخلق تلك الفرية ؛ بل سندها بأخرى أشد منها وأخزى .

إذ يروى عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه أنه قال « أوتيت قوة أربعين فى البطش والجماع » .

ياللهول ! الرسول المبرأ من كل عيب ، البعيد عن كل ذنب يقول لصحابته : أنا فى قوة أربعين منكم فى الجماع . فتصور — ياهداك الله — رجلا يقول لك مثل هذا القول التافه السقيم البذىء ، أكنت مصاحبه أم مجانبه ؟ أكنت محابيه أم معاديه ؟ أيستوجب بقوله هذا احترامك أم تحريتك ؟ وانظر فى أى موضع يضعون من وصفه ربه بالخلق العظيم ! « وانك لعلى خلق عظيم » .

إن مثل هذا الكلام لو نسبه إنسان كائن من كان ؛ لأحط الناس : لثار وغضب ؛ فما بالك بنسبته لأعلى الناس قدراً ، وأسماهم خلقاً !

ولم تقف هذه الأحاديث عند حد المساس بكرامة الرسول عليه الصلاة والسلام فحسب ، بل تعدته إلى محيط الشرائع ؛ فقد رووا فيما رووا « حديث الرضاع »[1] .

ومثل هذه الأحاديث الكاذبة ، والأقاويل الباطلة يضيق المقام عن ذكرها ؛ فانظرها إن شئت مستوفاة فى كتابنا « الفرقان » .

والرسول عليه الصلاة والسلام : محفوظ — بأمر الله تعالى — من الشيطان ، ونفسه أزكى من نفوس الملائكة !

وجميع ما قدمت : تكاد تجمع عليه أمهات كتب التفاسير المتقدمة ، مع توثيقه وعنعنته .

وهذا قل من كثر ، وغيض من فيض ؛ فلو أردنا أن نسوق كل ما يأباه العقل ، والذوق ، والدين ، والقرآن : لما وسعتنا هذه المجالة .

فإذا كان هذا حال فضلاء البشر وهداتهم : فكيف بعامة الناس ودهمائهم ؟!

---

(١) أنظر هذا الحديث فى مبحث الإسراء والمعراج المتقدم .

التفاســير المحدثة

أما التفاسير المحدثة : فقد رأينا فيها ما يتنافر ومعانى القرآن : التى أرادها الرحمن !

فقد قرأنا فى بعضها — على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر — قرأنا تأويلا لقوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم » أن المراد « عذاباً من فوقكم » هو ما تلقيه الطائرات ، من قنابل ومهلكات .

وأن المراد « أو من تحت أرجلكم » هو الديناميت : الذى يدسه الأعداء فى باطن الارض .

وهو قول بادى التكلف ، ظاهر التعسف !

لأن الله جلت قدرته : قد أنزل الصواعق من فوق الرؤس ، وسخر البراكين : تلق بالأحجار والحمم ، وبعث الزلازل والخسف من تحت الأرجل : فأهلك بما أنزله من فوق الرؤس ، وما بعثه من تحت الأرجل : أمماً شتى مكذبة !

تشهد بذلك آثارها ، وأطلالها ، وأخبارها !

ورأينا — من بعض علمائنا المحدثين — من يقول على ملأ من المسلمين : إن المراد بقوله تعالى : « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » : جمع أهل السماوات والأرض ، فى الدنيا .

جرياً وراء من يزعم أن اختلاط سكان الأرض بسكان الكواكب : صار قاب قوسين أو أدنى !

وهو قول لا نرى كبير عناء ، فى الرد عليه ، سوى : إيراد قول الحكيم العليم : « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ... فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ... ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ... ليجمعنكم إلى يوم القيامة ... وتنذر يوم الجمع » .

إذن فالجمع المقصود — بين سائر المخلوقات — فى الآخرة : لا فى الدنيا . وأن اليوم الآخر : من أسمائه « يوم الجمع » .

ورأينا أيضاً — فى بعض التفاسير المحدثة والقديمة — تأويلا لقوله تعالى عن أصحاب الكهف : « ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » أن « ثلاثمائة » بالتاريخ الميلادى . و « ٣٠٩ » بالتقويم الهجرى .

وهو تكلف لا داعى له ألبته : يتنافى مع لغة العرب التى نزل بها القرآن .

قال الشاعر : كانوا ثمانين وازدادوا ثمانية .

ولا يعقل إطلاقاً أن مقصد الشاعر العربى : كانوا ثمانين . بالتقويم الشمسى ، وثمانية وثمانين ؛ بالتقويم القمرى !

وإنما المعقول المقبول فى التأويل عند ذوى العقول : أن الله تعالى بعثهم من مرقدهم على رأس الثلاثمائة من السنين : وكان من أمرهم ما كان ! ثم أنامهم تسع سنين فى كهفهم ؛ ثم أماتهم كما يميت غيرهم .

وكذلك رأينا من يقول : إن قيام الساعة سيكون فى تمام عام ١٨٠٢ هجرية : استناداً إلى قوله تعالى : « لا تأتيكم إلا بغتة » .

وحساب لفظ « بغتة » بالجمل ١٨٠٢ الباء ٢ والغين ١٠٠٠ والتاء ٤٠٠ والتاء الثانية ٤٠٠ أيضاً ؛ فيكون المجموع ما ذكرناه .

وهو قول هراء : ينفيه صريح القرآن : بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا الله تعالى وحده : « قل إنما علمها عند ربى ... إن الله عنده علم الساعة ... إليه يرد علم الساعة » .

وهذه الأقوال التى أوردناها : مما تنزه قرآننا المجيد عن السقوط إليه ، وتنزه أنبياء الله تعالى عن الوقوع فى مثله !

وما هو إلا انحدار فى الخلق والمفاهيم : أدى إلى اتباع أقوام ؛ ينسبون فى كتبهم المنزلة : المبدلة : إلى أنبيائهم : أحط الدنايا والخطايا !

فقد ذكروا عن لوط عليه السلام : أنه سكر حتى ثمل ، ثم زنى بابنتيه ، وأنهما حملتا منه ؛ بتحريض من أمهما !

وليس بغريب منهم أن يدسوا علينا فى ديننا ما ليس فيه ؛ لنتساوى معهم فى هذا الإفك والبطلان !

وإنما العيب كل العيب : أن نرى الخطأ فلا نمحوه ، والباطل فلا نزيله ، والكفر فلا نحاربه !

الذين ينتسبون إلى الإسلام
وهو منهم براء

ويأتى بعد ذلك دور إناس : زعموا أنهم مسلمون ؛ وما هم بمسلمين ! وأنهم عالمون ؛ وما هم بعالمين ! وأنهم مفسرون لآيات الله ؛ وما هم بمفسرين !

لقد أرادوا بجهلهم ؛ أن يخضعوا آيات الكتاب الكريم لأفهامهم ، وأن يذيعوا ذلك الإفك فى كلامهم : المكتوب ، والمسموع ، والمنظور .

ومما يدعو إلى شديد الأسى والأسف : أن تفتح لهم أجهزة الإعلام أبوابها — فى الدولة المسلمة — بغير رقيب ، ولا حسيب !

فتسمع نعيقهم فى الإذاعة ، وترى صورهم الكالحة البغيضة فى التليفزيون .

ويظهرون فى جميع ذلك بمظهر المرشد المستبصر ؛ الذى يريد هداية المؤمنين ، ويحفظهم من الأخطاء التى وقع فيها سلفهم من خير العصور حتى الآن !

فالصحابة جميعاً كانوا مخطئين بما ارتكبوه من مخالفة صريحة للقرآن : بإباحتهم التعدد : قولا وعملا !

ألم يقل المولى سبحانه وتعالى « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وقوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وبذلك يكون المولى جل وعلا : أباح التعدد « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » . ومنعه بقوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا » .

بمثل هذا الإفك والهراء : يتكلم بعض العلماء والكتاب ، ويذاع فى محطات الإذاعة المصرية .

(انظر المزيد فى مبحث تعدد الزوجات)

ويأتى بعد ذلك إنسان : مفتون بعمله ، مدل بنفسه ؛ وهو يدعى (الدكتور مصطفى محمود) وهو ليس بالمصطفى ، وليس بالمحمود !

فينكر فى صراحة — لا تقبل الشك — وجود جنة ، أو نار ؛ بالمعنى المفهوم لدى المسلمين ، والمبين صراحة فى القرآن الكريم .

ويكتب هذا المغرور فى المجلات السيارة هذه المعانى بأقبح صورها ! وبتبجح لم يرتكبه مسيلمة الكذاب فى أوج كفره !

وقد نصحناه كثيراً — بطريق أحد الفضلاء — فلم يرعو ؛ بل سار فى غيه وبغيه !

وقد سمعناه أخيراً بالتليفزيون بدمه ولحمه ؛ يذيع أتفه المعانى ، وأقبح المفاهيم ! ويخوض فى معانى القرآن الكريم خوضاً يستأهل معه اعلان كفره ، وفسقه ، وخروجه عن دائرة المسلمين !

فهو يبدأ حديثه بإيهام المستمعين أن سائلا سأله ، وأنه سيجيب على هذا السؤال .

وبعد ذلك يدلى بسؤال تافه ؛ أعد الإجابة عليه ، ويجيب بما يحلو له ، ويحلو أيضاً استماعه ؛ لما حواه من زيف ؛ يسر بعض المستمعين .

فمن ذا الذى يعترض على أن الله : غفور ، رحيم ، ودود ؟

ومن ذا الذى يخالف فى أن التأمل فى خلق السموات والأرض ، والأفلاك ، والأنجم : واجب على كل مسلم ؟

وبعد ذلك يدس من الإلحاد والكفر ما يدس !

حتى أنه فى بعض أحاديثه : أراد أن يطعن فى الحدود التى أقامها الله تعالى لعباده ؛ ليربيهم بها ، ويكفف أذاهم بتوقيعها : شنع عليها بقوله : كيف نستطيع قطع يد السارق ؛ وقد أصبح المجتمع كله لصوص : فمن يقطع من ؟ (يقصد المجتمع العربى الإسلامى طبعاً) لأن الحديث كان منصباً عليه .

وعرج بعد ذلك إلى رجم الزانى ؛ فقال : إن القرآن اشترط لثبوت الزنا شهود أربعة ؛ فمن ذا الذى قبل أن يزنى يدعو أربعة أشخاص (يتفرجوا) عليه ؟!

وقس على ذلك باقى الآثام المستحقة للحدود !

وهكذا يسير بنا هذا المصطفى محمود فى خضم من الكفر ، والإلحاد ؛ الذى يدبر لها ويبيت !

ومن الغريب — مع الأسف الشديد — أن يعاونه فى نشر هذه السخائم ، والسخافات : أرقى أجهزة الإعلام فى الدولة ؛ بغير ما تحفظ !

والأعجب من هذا : أن من بين مستمعيه طبعاً كثير من العلماء الأعلام : فلا يتعب أحد قلمه بدعوة هذا المغرور إلى الكف عما يذيعه ؛ أو يطلق لسانه لدى المسئولين بمنعه عن هذا الهراء ، والبذاء !

وكان ضمن ما قاله أيضاً : إن النار والجنة ؛ ليستا بالنار المعلومة لنا ، ولا بالجنة التى وعدناها .

بل إنهما : نار التفكير ، وجنة الضمير !

وأنه ليس من المعقول أن يعذب الله — رغم عظمته ورحمته — عباداً ضعفاء أمثالنا !

وأن النار المحرقة : كيف يكون فيها شجر يظل ، وماء يشرب ، وحديث يتبادله أهلها ؟

مستدلا بقول القرآن الكريم « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم » وقوله جل شأنه « وسقوا ماء حميا » وقوله سبحانه وتعالى « كلما دخلت أمة لعنت أختها » .

وتكلمهم فى النار ، وتلاعنهم ؛ وأشباه ذلك .

وغاب عن هذا الغر أن النار ذكرت فى القرآن ١٢٦ مرة . والجحيم — وقصد بها النار — ٢٦ مرة . وجهنم — وقصد بها النار أيضا — ٧٧ مرة . والهاوية ، ولظى ، وغير ذلك من الأسماء ؛ التى تعبر عن النار ، فيصير ذكرها أكثر من ثلاثمائة مرة : لا يؤخذ من أحدها ما فهمه ذلك العبقرى ؛ الذى يؤكد أنها ليست بنار محرقة !

أما الجنة : فقد صال فى معناها وجال : ونعى على من فهم أنها : أنهار ، وأطيار ، وأشجار ؛ قائلا : إن الجنة ليست بسوق خضار ؛ وكرر هذا اللفظ عدة مرات .

وإنى لن أدعو عليه بأكثر من أن يحرمه الله تعالى هذه الجنة ، ولذيذ ما فيها ؛ إذا لم يسارع بالاستغفار والتوبة !

وكأنى به ؛ وقد أراد أن يطوع القرآن الكريم لمعان جالت بخاطره ؛ أوحى بها إليه الشيطان اللعين ؛ ليكون من جملة أوليائه الفاسقين !

هذا وإن ما نادى به الدكتور مصطفى محمود : لم يكن هو أول من نادى به ؛ فقد نادت به من قبل بعض الفرق التى اشتهرت بالمروق عن الإسلام !

بل وزادت عما قاله : إنكار وجود آدم وإبليس ؛ وزعمت أنهما رمزان لا أصل لهما !

وإنى أحذر كل من يصغى إلى هذه السفاسف والترهات ، وأنذره بغضب الحليم الجبار ؛ وبالانتقام الدنيوى ؛ فى النفس ، والمال ، والأهل !

وفى الآخرة يقال لهم « ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ... هذه النار التى كنتم بها تكذبون . . انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » .

وأقول لهم اليوم ، بهدى من الله ! « ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ! »

وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

هذا وجميع أقوال من ذكرناهم — باسمهم أو برسمهم — إن دلت على شىء ؛ فإنما تدل على سوء فهمهم ، وعدم إلمامهم بما فى كتاب الله ، وحديث رسول الله !

هذا إذا أحسنا الظن بهم وبعقائدهم !

وقد اكتفينا بذكر بعض ما قالوه ؛ من غير ردّ ولا تفنيد ؛ لأن ذكره وحده : كاف لهدم أركانه ، وظهور بطلانه !

ولا أدرى كيف يقحم مصطفى محمود ، وأمثاله أنفسهم فى خضم تأويل القرآن الكريم ، وهم أول الجاهلين به ، المنكرين لأسسه ، الداعين إلى هدمه !؟

واجب علماء المسلمين

وجدير بعلماء المسلمين : أن يجتمعوا فى شبه مؤتمر إسلامى عام : فينبهوا المسلمين إلى ما دسه اليهود الملاعين ، وما حاكه أعداء الدين فى الدين : بقصد هدم بنيانه المتين ! وتقويض ركنه الركين !

والله المسئول : أن يعز دينه ، وينصر جنده ، ويحفظ كتابه ؛ إلى يوم الدين !

الله معنا ! فهل نحن مع الله ؟

لقد جرت سنة المولى سبحانه : أن ينصر من ينصره « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

ونصر العبد لله تعالى : أن يعمل ما أمر به ، ويجتنب ما نهى عنه ! وهنا يتحقق نصر المولى سبحانه له ؛ كما جاء فى كتابه الكريم « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

كما جرت سنته تعالى أيضاً أن يكون مع من اتقى من عباده ، وأحسن مع عباده « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وتقوى المولى جل وعز : خشية غضبه ، وابتغاء مرضاته ، والتماس عفوه وغفرانه !

هذا وقد ذاق الشعب المصرى الأمرّين ؛ فى انتظار نصر المولى سبحانه له على أعدائه وأعداء الله : وأنى يأتينا النصر ؛ وقد ازددنا بعداً عن أسبابه المؤدية إليه ، والموجبة له !

فالفجور : هو الفجور ! والتغالى فى الإثم : هو التغالى ! والتفانى فى العصيان : هو التفانى !

والبعد عن الله سبحانه ، واستمراء معاصيه ، والمجاهرة بها ؛ كل ذلك كان شاغلنا وديدننا !

فلما ضاقت بنا السبل ، وضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت علينا أنفسنا ، وأيقنا ألا ملجأ من الله إلا إليه !

وقد قال الرسول الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم « صنفان من الناس ؛ إذا صلحا : صلح الناس ، وإذا فسدا : فسد الناس : العلماء والأمراء » لجأ حينذاك علماؤنا ، وذوو الرأى والأمر فينا إلى الله ، وحكموا سياسة العلم والإيمان ، وسيادتهما ! فاستجاب الغفور الودود لعباده الضعفاء ! فجعلهم من الأقوياء ، وأخذ بأيدى المساكين ؛ إلى النصر المبين !

وكانت بداية نصره تعالى فى يوم العاشر من رمضان المعظم عام ١٣٩٣ حيث عبر جنودنا الأشاوس قناة السويس ، واجتازوا خط بارليف ؛ بعد تحطيمه وتمزيقه !

وبعد أن استمرأ اليهود إملاء الله تعالى لهم ، وأمنوا كيده ، وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب » .

وصار جند الرحمن يحرزون النصر تلو النصر ، حتى اشرأبت الأعناق إليهم ، وصاروا موضع المجد والفخر طوال الدهر !

هذا وقد سرت — أثناء القتال — أنباء ، أثارها انتصار الجيش المصرى المجيد ، على قوى الشر والعدوان ؛ التى لا تقهر : فقهرتها !

فمن قائل : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد رؤى فى المعركة !

ومن قائل : إن جنوداً مجهولة اشتركت فى القتال مع المقاتلين !

ومن قائل : إن مقاتلات العدو : كانت تلقى حمولاتها المهلكة بعيداً عن أهدافها !

وقد أثار ذلك بعض الكتاب ، الذين ابتعدوا عن الروحانيات . التى تحس بالحس ؛ لا باللمس . وترى بالبصيرة المدركة . لا بالبصر الزائف !

ولم يتحقق لديهم إلا ما يدرك باللمس ، ويرى بالعين ، ويسمع بالأذن !

وغاب عنهم أن الإيمان : مشروط بالغيب « والذين يؤمنون بالغيب » .

وقد كتب الدكتور فؤاد زكريا ، الأستاذ بكلية الآداب ، مقالا مطولا ؛ بعنوان (معركتنا والتفكير اللاعقلى) نشرته له جريدة الأهرام بعددها الصادر فى يوم الاثنين ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ بين فيه أن مثل هذه الإشاعات : انتقاص من قدرة الجنود الذين قاتلوا ، وامتهان لعقول العقلاء ! وأن هذا تفكير لا عقلى ، وأنه بدعة ، وخرافة ، وتصديق ساذج !

القول بما جاءت به الشريعة المطهرة ، وأنزله الله تعالى فى محكم كتابه : امتهان للعقول ، وبدعة ، وخرافة ، وتصديق ساذج !!؟

لقد وقع فى كل هذا — من حيث لا يشعر — بتفكيره اللامعقول ، وحرصه على نشر هذه السخافات فى بلد : شرع فى العودة إلى الله ، وفى الانتصار بالله ، والإنابة لله !

وقد غاب عن هذا الكاتب الساذج أن التفكير اللاعقلى : معترف به لدى سائر العقلاء !

فإن جنودنا — أتم الله تعالى عليهم نعمة النصر — قد قاموا بواجبهم خير قيام : لركونهم إلى مولاهم ؛ الذى خلقهم ورباهم ، وملأ قلوبهم قوة وعزماً وإقداماً !

فلو أنهم تركوا التوكل على الله ، والاستعانة به : ما أتاهم النصر بالصورة التى تم بها ، والتى أشاد الأعداء قبل الأصدقاء بدقتها وروعتها !

وهذا الكاتب الساذج : أراد أن يدافع عن الجنود وقدرتهم ; فى حين أنه قد نفى عنهم أسمى وأعلا الصفات : وهى تقوى الله تعالى ، والاستعانة به !

وهى أعلى من رتب البسالة والإقدام ; بل هى الوسيلة الوحيدة للحصول على البسالة والإقدام !

وهل التوكل على الله سبحانه وتعالى : قد أصبح فى هذا الزمان ينافى استجماع القوى الذاتية والمادية ؟ كما أشار إلى ذلك حضرة الكاتب اللاعقلى !

يقول المولى سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » فنفى جل شأنه النصر إلا عن طريقه .

وحين يقول المولى فى كتابه العزيز « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

وما جاء فى هذه الآيات البينات : ثابت دينياً وتاريخياً . فهل لأحد من العقلاء ، أن يقول : إن ذلك يدخل فى عموم اللامعقول ؟

وحين يقول جل شأنه « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » فجعل سبحانه المخرج من الشدائد : مقابلا للتقوى ! ومفهوم المخالفة يقتضى : أن من لم يتق الله : لا يجد مخرجاً مما يقع فيه من الرزايا والشدائد !

وهذا من الأمور المعقولة عند سائر العقلاء ; ولكنها غير معقولة عند ذلك الكاتب الفذ !

وحين يقول المولى فى كتابه المجيد « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » .

والإلقاء فى القلوب : لا يرى بالعين طبعاً ; ولكنه يرى بانهزام قوى الشر ! فيصير أمراً معقولا ; بل ملموساً محسوساً — فى حدود ما علمناه . وتعلمناه من الدين بالضرورة — ولكنه فى نظر هذا الكاتب : غير معقول !

وحينما يأتى شتاء هذا العام (١٩٧٣ — ١٩٧٤) فى أمريكا وغيرها ; قارساً قارصاً ; ببرودة شديدة غير عادية . مع ملابسة قطع البترول العربى عن هذه البلاد .

أليس من حق المؤمن بربه ، الواثق بعدله ؛ أن يقول : إن ذلك منة من المولى على عباده المتقين ، ونقمة على الخارجين عن طاعته ، المعاونين لأعدائه !

وإذا فكر فى ذلك المؤمن ؛ فهل يكون تفكيره عقلياً ، أو لا عقلياً ؟!

وحين يأتى بعض الفضلاء ؛ فيقول : إنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام مع المجاهدين ؛ فأى غرابة فى هذا ؟ وأى انتقاص من قدر المجاهدين ؟!

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى » .

إنسان يزعم أنه رأى الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ؛ فأى غرابة فى هذا ؟

وإذا كانت رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام : مستحيلة ؛ فبم تفسر قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من رآنى فى المنام : فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل بى » .

وقد رآه عليه الصلاة والسلام : البر ؛ فازداد براً ! ورآه الفاجر ؛ فأقلع عن فجوره !

ولعلى لا أذيع سراً إذا أنا قلت : إنى — ولست من خيار القوم ، ولا أواسطهم — قد رأيت سيدى رسول الله فى المنام ؛ وحلت بى بركاته وفاضت على فيوضاته ! وظهرت آثار ذلك واضحة فى سرى وجهرى ، وجسمى ، ومالى ، وأهلى ؛ وقد أعطانى ربى كفايتى ؛ بل وفوق الكفاية !

فإذا قال واحد من فضلاء القوم : إنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو أنه صحبه إلى المعركة . فأى غرابة فى حدوث ذلك !

وإذا قال ذلك الفاضل : إنه رأى الرسول مناماً ؛ فمابالك بمن يرونه يقظة ، ويكلمونه شفاها ؟ « أفتمارونه على ما يرى » .

هذا وقد حاجنى بعضهم : ممن لا يرون مواقع أقدامهم ، ولا يفهمون أكثر مما فهمه هذا الكاتب .

وكانت محاجتهم تنصب على أنه كيف يمكن للرسول عليه الصلاة والسلام أن ينصر غيره بعد موته ؛ وقد كان لا يستطيع نصر نفسه حال حياته ؟

وهو احتجاج : إن دل على شىء ؛ فإنه لا يدل إلا على قصر الفهم ، وقصور الإدراك ؛ والبعد كل البعد عن حقيقة الإيمان !

فالرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، فى حال حياته : يقع عليه ما يقع على البشر : من نصر وهزيمة ، وعافية ومرض ، وتكريم وإيذاء : ليتأسى به من حلت به مصيبة ، أو نزلت به نازلة : « لقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة » .

أما وقد لحق الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالرفيق الأعلى : فقد انقلبت صفاته البشرية حال حياته ؛ وصار له من القدرات مالا يحده حد ؛ ومنها : ما يتسع لنصر غيره !

فقد أمكنه أن يعين أحبابه بالنصر الذى أرادوه ! بأمر ربه سبحانه وتعالى !

وكيف ينكر هذا منكر ؛ وقد أصبحت قدرته عليه الصلاة والسلام : تتناول شفاعته فى عصاة أمته ؛ فينجيهم من النار !

هذا وقد منع حال حياته من الاستغفار لأقرب أقربائه ، وأحب أحبائه !

كما نهى إبراهيم من قبل عن الاستغفار لأبيه ، فتعالى المتفضل على من شاء بما شاء !

فعليك ياسيدى يارسول الله صلاة الله تعالى وسلامه : حياً بين الأنبياء ؛ فى ملكوت السماء ؛ وحياً بيننا معشر الأحياء : تهدينا — بأمر ربك — النصر تلو النصر إن شاء الله ! ليؤمن بحقيقتك ؛ من وقف عند صورتك !

ولست أدرى لماذا سمى الكاتب جميع ذلك تفكيراً لا عقلياً ؟ فى حين أن التفكير : لا يكون إلا بالعقل ، ولا يصلح التفكير بدونه .

والتفكير لا يكون إلا فيما وراء المنظور بالعين ، المحسوس بالحواس .

فإن البهائم مثلا : تؤمن بالمنظور بالعين ، المحسوس باللمس . فإذا رأت طعاماً : علمت أنه طعام فالتهمته بلا عقل ولا تفكير .

وإذا رأت عصاً فى يد إنسان : خافته ، وجفلت منه ؛ لأنها علمت — بلا تفكير — أنه يريد إيذاءها .

أما الإيمان بالغيب : وهو ما وراء المنظور ؛ لأنه لا يرى بالبصر ؛ بل يرى بالبصيرة : فهو شأن الإنسان وحده ؛ وهو ما نسميه نحن بالتفكير العقلى ، والذى أسماه الكاتب بالتفكير اللاعقلى !

وإنه لمن المسلم به : أن سائر الديانات تؤمن بالغيبيات : المعقولة عندنا ، اللامعقولة عند الكاتب .

فمن الذى يجرؤ أن يقول : إن الله سبحانه وتعالى لا يستطيع أن يمد عباده بما يشاء ، جالباً النصر لهم متى أراد ؟

فإذا قال الله تعالى لعباده المحاربين « يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » هل هذا الإمداد : يدخل فى عموم المعقول ، أو اللامعقول ، ياذوى العقول ؟!

وإنى أقسم — غير حانث ولا آثم — أن كثيراً من أبنائنا الضباط البواسل : قد أقسم لى — أيماناً مغلظة — أنه قد رأى بنفسه ، وبعينى رأسه المقاتلين فى المعركة من حوله : لايعرف أكثرهم ، ولا ينتسبون إلى وحدته ، التى تحارب ، والتى يعرف أفرادها واحداً واحداً !

فأى غرابة فى هذا عند ذوى العقول ، حين يسمعون خالقهم يقول « يمددكم ربكم » .

وكيف نؤمن بها من المولى سبحانه ، حين يقولها ، ونكفر بها حين نراها بالعين ، ونلمسها باليد ؟!

وقد جاء على لسان المقدام رئيس أركان حرب القوات المسلحة ، فى حديث له نشرته جريدة الأخبار ما نصه :

ولكنها — أولا وأخيراً — رعاية الله تعالى لنا ، التى مكنتنا من تحقيق المفاجأة بالصورة التى تمت بها . وأن بعض قنابل طائرات العدو : كانت تقع على بعد كيلو متر من هدفها المراد ! « انتهى » .

يالله ! كم أنت يامولاى رحيم بعبادك ، لطيف بهم : تحدوهم بحفظك ، وتكلأهم بعنايتك ، وتبعد عنهم أذى أعدائهم : بقذف الرعب فى قلوبهم ، فلا يرون أهدافهم ، ولا يهتدون إلى مقاصدهم !

أما ما أشار إليه ذلك الكاتب اللاعقلى : من انتصار أعداء الله « اليهود » فى معارك سابقة ، فهو أمر معلوم لمن عنده أدنى إلمام بالتاريخ :

فالمغول ، والتتار ، والهكسوس ، وأضرابهم : لقوا من الانتصارات مالاحد له ، وأخيراً لاقوا من الهزائم مالاحد له أيضاً ! وهى سنة الله تعالى فى خلقه « ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

وقد يكون انتصار اليهود فى عام ١٩٦٧ راجعاً إلى إعجابنا بكثرتنا ، كما أعجب

المسلمون بكثرتهم فى احدى المواقع ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

وقولهم : لن نغلب اليوم عن قلة ! فكان جزاء هذا العجب : الهزيمة !

أما اليوم فقد نصرنا المولى سبحانه : لا بقوتنا وحدها ؛ بل بتقوانا وإنابتنا إليه !

والله تعالى يقول ، إن تتقوا الله : يجعل لكم فرقانا ، أى نصراً مبينا !

الله أكبر

ولماذا نذهب بعيداً : فقد جاءنا أن المجاهدين كانوا فى هذه المعارك : لا يخطون خطوة إلا وقالوا ، الله أكبر ، فتنفتح لهم أبواب النصر ، وتنهار أمامهم الحصون ، وتتهاوى الطائرات ، وتتفتت الدبابات ! بل ويمشون على الماء !

فهل كان تفكير جنودنا وقتذاك : تفكيراً عقلياً ، أو لا عقلياً ؟

وكان جنودنا — فى كثير من الأحيان — حين يرون فئة من اليهود يكبرون أمامهم ؛ فيلقون بأسلحتهم ، ويرفعون أيديهم فوق رؤسهم ! وحينذاك ينبثق نور القرآن بقول الحكيم العليم ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » .

هذا وقد كان المسلمون — فى العصر الأول — قلة لا يعتد بها : عدداً وعدة . ولكن تقواهم ، وطاعتهم لمولاهم : دفعتا بهم إلى ملاقاة فارس والروم ؛ وهما أمتان عظيمتان ؛ موفورتا الرجال والسلاح ؛ فهزموهما — فى عقر دارهم — شر هزيمة عرفها التاريخ : قديمه وحديثه !

وإذن يستبين لنا ما قدمناه : أن تقوى الله سبحانه : جالبة للنصر الواقعى الحتمى ! وأن التوكل — لا التواكل — مدعاة للرفعة والمجد والسؤدد !

وأن رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام : ليست بعيدة ، ولا غريبة ؛ عند ذوى العقول والبصائر !

ومن عجب أن جريدة الأهرام ؛ وقد نشرت هذا المقال المليء بالجهل والإلحاد — وهو مقال أطول من ليالى الشتاء — قد بخلت — على سعتها — بنشر ما أرسله لها خيرة المسلمين والكتاب ؛ من رد على هذا المقال ؛ وكلهم مشهور الإسم ، موفور العلم !

بل نشرت بضعة أسطر ، لا تكفى ، ولا تشفى ! وجعلت من الكاتب خصماً وحكماً : فسمح بنشر ما أراد ، واستبعد مالم يرد ، وسمحت له بالتعقيب على ما نشر ، فكان جهله وإلحاده : أول ما يقرأ ، وآخر ما يسمع ! ولكنه إذا أفلت من غضب الأرض ، فلن يفلت من بأس السماء !

ومن العجيب : أن يعود هذا الكاتب إلى إلحاده وجهله : فينشر فى أهرام ١١/٢٨ ١٩٧٣ مقالا بعنوان « إلى متى نغترب عن حاضرنا ؟ » ، وهو مقال : لا يقل عن سابقه جهلا وزندقة !

فقد دعا فيه دعوة صريحة : إلى التنكر لماضينا ، والتمسك بحاضرنا .

وإنى أريد أن أسائله ، وأسائل من يناصره : هل يجب التنكر لماضينا — ولو كان مشرفاً — ونتمسك بحاضرنا — ولو كان مؤسفاً ؟

أنتنكر لماضينا ، ولو كان فيه محمد بن عبد الله ؟ ونتمسك بحاضرنا ، ولو كان فيه فؤاد زكريا ؟

أنتنكر لماضينا وفيه أمثال خالد بن الوليد ، وطارق بن زياد ؟ ونتمسك بحاضرنا ، ولو كان فيه من الخونة والمارقين ما فيه ؟

ولم يفته فى هذا المقال : أن يشيد بما كتبه فى مقاله السابق ، ويؤكده ، ويصر عليه !

وزاد عليه : إنكار بعث الروح ، أو عودتها ، وهذا الحديث الأخير : ليس هو أول من تكلم فيه ، بل سبقه إليه كثيرون ممن لا يدينون بدين سماوى !

لأن القرآن الكريم ، وهو كتاب يزعم المؤمنون أنه من عند الله ! والإنجيل : وهو كتاب يزعم المسيحيون أيضاً أنه من عند الله ! والتوراة : وقد زعم بنو إسرائيل أنها من عند الله ! كل هـــذه الكتب تتحدث بما ينافى ما يقوله علامة العصر الحاضر ، وإمام اللامعقول ، فادركونا ياذوى العقول !

هذا وقد شفى غلة المسلمين ، وأعلى كلمة الدين : العلامة ، المسلم : الأستاذ عبد المنعم النمر : مدير البعوث الإسلامية بالأزهر . بكلمة قيمة نشرت فى الأهرام بعدده الصادر فى ١٩٧٣/١٢/٣ بعنوان « النصر والهزيمة فى ميزان الإســلام » ، قضى فيها على أراجيف الملحدين الزائفين ، ووضع الإسلام فى موضعه الذى أقامه الله تعالى فيه ! فله الشكر منا ، والأجر من الله !

هذا وليعلم من لم يكن يعلم : أنه ليس فخراً لجنودنا أن تنسب لهم القوة والعزيمة والإقدام ؛ وننفى عنهم فضيلة التقوى والتوكل !

مما تقدم : يتضح لنا جلياً : أن الله تعالى معنا ؛ يحدونا بلطفه وعطفه ، ويعيننا — متى استوجبنا العون — ويمدنا : إذا استحققنا المدد !

فهل نحن مع الله !؟

وإذا لم نكن معه : بالطاعة ، والانقياد ، والإنابة ؛ فى وقتنا الحاضر ؛ ألا يقتضينا الواجب نحو أنفسنا ، ونحو أبنائنا ، ونحو وطننا : أن نجاهد أنفسنا ، ونحييها من جديد : لنكون معه !؟

والله سبحانه وتعالى يثبت دائماً وجوده بجوده ! وقدرته بأخذه ! وسلطانه بعفوه ! ولطفه بهدايته ! وبطشه بمغفرته !

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟! »

فحمداً لله سبحانه على ما وهبنا من نعمة رضاه ، ومنة معونته ؛ ونرجوه سبحانه أن يغفر لنا ما فرطنا فى حقه ! وأن يرزقنا التقوى ، والإيمان الصحيح ؛ حتى نلقاه سالمين آمنين ، راضين مرضيين ! ووهبنا النصر على الأعداء ؛ بشفاعة خاتم الأنبياء ؛ صلى الله تعالى عليه وسلم !

والحمد لله فى البدء والختام ؛ وسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم !

زجر المؤلف للمادح

ياسيدى : إن كنت تمدحنى إرضاء لى : فقد جانبك الصواب ، ووجب عليك المتاب !

وإن كنت تمدحنى إرضاء لله : فحسبك الله ؛ الذى يرضيك ، حتى يكفيك !

أما أنت ويا إلياس[1] ، ياأعز الأبناء وأوفاهم : فقد جاوزت فى مدحى حداً أضر بى ، وشغلنى بنفسى عما خلقت له !

عفى الله تعالى عنك يابنى فيما رميتنى به من علم : أرجو أن أحوزه ! وفضل : أتمنى أن ألحقه !

فقد قتلتنى بما امتحنتنى به : من مدح لا أستحقه ، وأثقلت كاهلى بجميل ؛ إن شكرتك عليه : أسأت إلى نفسى ! وإن لم أشكرك : أسأت إلى خلقى !

شكر الله لك نيتك ، وأعطاك بغيتك ، وأرانى فيك ما أنت له أهل !

أما ما خالفتنى فيه : فإنى أشكرك عليه ؛ لصراحتك ! ولكنى لن أرد عليه — لا استخفافاً بك ، ولا غمطا لحقك — بل أطلب منك أن تعيد النظر فيما قرأت .

وإنى ألتمس لك العذر كل العذر ؛ لأن ما نقدته : قد رسخ رسوخ الدين ، فى صدور أكثر المؤمنين !

هذا ولا يمنعنى ذلك عن جزيل شكرك على حسن نيتك ، وصدق طويتك !

---

(١) الدكتور إلياس محمد العتبي : الذى كتب مقدمة لهذه المباحث . تعرفت عليه عام ١٩٥٠ — على ما أذكر — وكان نموذجاً للجد والتقوى . وقد سرنى انقياده لى ، واستجابته لكل ما يراه حقاً ، بيد أنه قد ساءنى منه مغالاته فى مدحى ، وإطراؤه لى إطراء لا أرضاه منه ، ولا أستسيغه لنفسى !

زجر المؤلف للقادح

يا سيدى : إن كنت تذمنى : ابتغاء مرضات الله : فلك الله ، لصدق نيتك ، وحسن طويتك !

وإن كنت تذمنى : لهوى فى نفسك ، وسمعة ترتجيها ، وشهرة تبتغيها : فتبا لك ، وسحقاً لفعلك !

وسنأتى يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : فيأخذ الحكم العدل من حسناتك فيضمها إلى حسناتى ! أو يأخذ من سيئاتى فيصبها على سيئاتك !

وإنى — علم الله — لم أبتغ فيما كتبت : سوى وجه الله تعالى ، وإقرار ما ارتضاه ؛ لمن خلقهم لعبادته ، واصطفاهم لخلافته !

وإن أردت البرهان : فلك البيان !

١ — عصمة الرسول : من ذا الذى يستطيع أن ينسب إلى الرسول الكريم ، سوى العصمة المطلقة ؛ بأجلى معانيها : قبل البعثة وبعدها !

وهى خصوصية له وحده : اختصه المولى سبحانه وتعالى بها ؛ فمن ذا يخالفنى فى هذا ؟

٢ — تعدد الزوجات : لم أقل فيه ؛ سوى ما قرره القرآن الكريم ، وأقره الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسار عليه صحابته الأجلاء من بعده ، وتابعهم عليه التابعون الأوفياء ، وتابعوا التابعين ، إلى يوم الدين !

وهل يستطيع عاقل أن يقول : إن تعدد الخليلات : خير من تعدد الزوجات ! ؟ فمن ذا يخالفنى فيما قلت ؟

٣ — زوجات الرسول : أمهات المؤمنين ، وسيدات نساء العالمين ! لم أقل فيهن : سوى ما قاله التاريخ الصادق الأمين !

فكلهن : ثيبات ، مكتهلات ؛ سوى عائشة .

ولم يكن ثمت هوى دافع ، أو رغبة جامحة ؛ لشهوة طامحة ! فمن ذا الذى يكفر بقول غير الذى قلت ؟

٤ — أم المؤمنين خديجة : وما أدراك ما خديجة ! لم أوفها حقها ؛ الذى أوفاه المولى سبحانه وتعالى لها ! فهى سيدة نساء العالمين ؛ ولا فخر ! فن يعارضنى فيما قلت ؟

٥ — الطلاق : يقول المولى جل وعلا « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وأعطى سبحانه حق الطلاق لمالكه (وهو الزوج) فقال عز من قائل « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » فأى قوة تنقل هذه العقدة من مالكها إلى القاضى ؟

٦ — تحديد النسل : من ذا يقول : إن القلة : خير من الكثرة ! وإن الذلة خير من العزة ! وينكر ما جاء فى القرآن : « واذكروا إن كنتم قليلا فكثركم » . « فاعتبروا ياأولى الأبصار » .

٧ — التبرج والسفور : أرونى رجلا واحداً — يتصف بالرجولة — يرضى بأن تكون زوجته ، أو بناته : نهباً للأنظار ، وموطناً لمتعة الغير !

ويخالف بذلك قانون الله ؛ وبالتالى قوانين الشرف والفضيلة !

٨ — التعطيل : تعساً لمن ينكر وجود الإله ! وسحقاً لمن يعيش فى هذه الحياة : أعمى ؛ بغير هادٍ يهديه ، وراع يكلؤه ويرعاه !

ونفسه هو تشهد بأن لها موجد !

وفى كل شىء له آية — تدل على أنه الواحد !

٩ — أين الله ؟ سؤال ساذج ؛ فالله موجود فى كل الوجود ! وآية وجوده : جوده ! ودليل كرمه : عقوبته ! ودليل بطشه : عفوه !

وهو جل شأنه : لا يشابه مخلوقاته ؛ لذا فإنه تعالى لايتعرف عليه بالحس ، أو باللمس ؛ بل بنور القلب ، وصفاء العقيدة !

أنار المولى قلوبكم ؛ لتعرفوا أين هو .

١٠ — الله معنا ؛ فهل نحن مع الله ؟ الله معنا ؛ بلطفه ، ونصره وتوفيقه ! أما نحن : فلسنا معه : لانصرافنا عن تدبر آياته ، وبعدنا عن مرضاته !

ينصرنا : فننكر وجوده ! ويرزقنا : فننكر غناه ! ويقرب منا بعونه : فنزداد بعداً عنه بكفرنا وطغياننا !

١١ — الإسراء والمعراج : الإسراء : حق لا مرية فيه ، والمعراج صدق ؛ ولكن لطمن فى حواشيه !

فالله تعالى هو الله : خالق الكل ! ومالك الكل ! ورازق الكل !

لا قدر — مهما علا — يقارب علوه ! ولا مخلوق — مهما سما — يدنو من سموه !

والنبى — عليه الصلاة والسلام — هو النبى : خير المخلوقات ! وسيد الكائنات !

فلم أغال مع المغالين ، ولم أنزل بقدره مع النازلين !

والأنبياء — عليهم السلام — هم الأنبياء : اصطفاهم مولاهم ؛ من صفوة خليقته ؛ ووقاهم من كل منقصة ؛ خاصة منقصة الحقد والحسد !

فعاشوا — كما أراد بهم ربهم — كراماً خيرة ! وماتوا كراماً بررة !

وإن شئت : صدقتنى ولك الأجر ، أو خالفتنى وعليك الوزر !

١٢ — أخطاء المفسرين والمحدثين :

لا يستطيع إنسان — بالغ ما بلغ من الجهل — أن يقول : إن كل ما جاء بالتفاسير : صحيح ؛ بعد أن بينا خطأها بالقول الصريح !

فهل بعد الذى ذكرناه : لعائب أن يعيب ما قلناه ؟

هدانا الله تعالى جميعاً لصراطه المستقيم ، وآتانا تقوانا ، ورضى عنا وأرضانا ! وسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم !
